المقالة النسكية
للقديسين
مكسيموس المعترف

نقلها إلى العربية
الأب
منيف حمصي

١٩٩٥

المقالة النسكية
للقديس
مكسيموس المعترف

ارحمني يا يسوع يا ابن اللّه.

المقالة النسكية للقديس مكسيموس المعترف

نقلها إلى العربية
الأب
منيف حمصي

١٩٩٥

الاهداء

الى قدس الاب الشماس جورج صافيتي مع فائق محبتي وتقديري.

الأب

منيف حمصي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى

١٩٩٥

الفهرس

الموضوع	الصفحة
- الاهداء	٥
- كلمة المعرّب	٩
- اعمال القديس مكسيموس المعترف	١٤
- سيرته	١٩
- النص	٢٥

كلمة المعرّب

اننا نعيش اليوم في عصر النفاق. وانتم، معشر المفكرين، قد اتخذتم لكم من الكلام والقلم سلعة وصناعة ومهنة. فلا غرابة بعد ذلكُ ان تلفظكم جماعتكم، وتستغني عنكم، ما دمتم تِضيعون وتهدرون في اللغو، كل ما لديكم من فن وبراعة. انكم تتلهفون الى الاعماق والذرى البعيدة، وتحملون الاماني والتطلعات: الهاوية تشدّكم لأنها ترسم لكم الدرك الكبير. انتم رجال التقصّي. ودأبكم سبر الاغوار، ولا حاجة اليكم في عالم المال والاعمال. لا حاجة اليكم في عصر الاستهلاك.

في رأيي، هذا هو لسان حال غالبية الناس اليوم. لقد اصبحت الانسانية اكثر استهلاكية من ذي قبل. لقد اصبح الناس اكثر تقاعساً، واكثر كسلاً من ذي قبل. الشأن الانساني لا يحركهم الا قليلاً، فهم يخافون على انفسهم. وبفعل هذا الخوف، باتوا يهملون شأن الناس، ولم يعودوا يكترثون لجراح الآخرين وهمومهم وآلامهم. من هنا، فقد ضاق الناس ذرعاً بالمفكرين، الذين – في نظري – يستشهدون كل يوم، وكل ساعة في ساحة الكلمة، وفي معركة الفكر.

والمفكر، وان قسى عليه الزمن، واستصغرته الايام، فانه ينمو كل حين في بودقة الخبرة وأتون المعاناة. لا يلبث ان ينهض بعد كل محنة. انه شهيد اذا استمر على الوفاء للحق والشهادة له. المفكر الاصيلُ يتعطش للحقُ تعطش المخلوق لخالقه، وتعطش الطفل الصغير الى صدر امه.

لقد شاءت العناية الالهية ان يكون بين الناس من يعشق الكلمة

ويحبها ويبذل كل شيء من اجلها. وهذا ليس غريباً، لا بل هو بداهة ايمان، لأن ربنا نفسه، الكلمة الازلية، والمتفرد وحده في حمل صورة الآب، عرفناه، على لسان الحبيب يوحنا، كلمة حملت لناحب الله: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، والكلمة كان الله» (يوحنا ١ : ١).

من هنا فإن المفكر – في نظري – كائن اسكاتولوجي. انه هكذا او لا يكون.

لقد جعل المفكرون عبارة «لماذا» نصب اعينهم، وغرسوها في اعماق قلوبهم. لذا فهم المتصدّون للمشاكل والباحثون عن حلول لها. المفكرون اناس يحارون ويقلقون ويستفسرون. دأبهم ان يتمخضوا كل حين لولادة الحقيقة.

المفكر هو اشبه بالاميرة شهرزاد التي كانت تواصل كل مساء سرد قصة كانت قد بدأتها في الصباح. والفكر هو كقصة الف ليلة وليلة؛ ليس له نهاية حاسمة، انما هو على الدوام بداية دائمة. الفكر هو القديم المتجدد. من هنا فإن فضيلة المفكرين تكمن في وفائهم للحياة واخلاصهم للحق في كل زمان ومكان. ليست فضيلتهم في شهرتهم او غزارة انتاجهم.

ورغم فرادة المفكرين، فإنهم لا يملكون سوى محبة الحقيقة والشهادة لها، لا بل قد يتأتي بهم الأمر الى حد الاستشهاد من اجلها. هذا شأن كبير قد لا يأخذ به كل المفكرين، ومن الاكيد ان كثيرين من الناس لا يفهمونه.

وهكذا يأتي قديسنا مكسيموس المعترف صاحب الكتاب وواضعه اميناً لربه، وشاهداً للحقيقة الى حد الاستشهاد من اجلها. عاش شاهداً للحق، ومات من اجل الحق.

لقد رأى مكسيموس في موت السيد من اجلنا ارقى تعبير عن حبه. لهذا كان فيلسوف المحبة، ورجل المحبة وقد افرد لها عملين من اعماله: (٤٠٠ قول في المحبة)، و (المقالة النسكية) التي نحن بصددها.

لقد احب مكسيموس الانسان اقتداء منه بربه. وجعل الآخر شرطاً لمحبة السيد نفسه: «كيف تحب الله، الذي لا تراه، ولا تحب الآخر الذي هو امامك». لهذا فهو يعلمنا ان الآخر هو محور الحب، لأننا من خلاله نأتي الى محبة الله. المسيحية هي ديانة محبة القريب: «احبب قريبك كنفسك».

ومحبة الآخر تجسيد لمحبة الله. نحن بدون محبة الله، لا نحب احداً، لكننا بدون محبة الآخر، عاجزون عن تجسيد محبتنا لله.

وسر شقائنا ينبع من كوننا عاجزين عن بلوغ الحب. وبلوغ الحب يأتي من معرفة ضعفنا الذي لا خلاص لنا بدونه. الا ان المسيحي ليس مجرد انسان يكتشف ضعفه. فاكتشاف الضعف في حد ذاته، قد يتحول الى اليأس والقنوط. انما نحن نكتشف ضعفنا في نور كمال السيد، فنسلمه ذواتنا الهشة طمعاً في بهائه ومجده.

الانسان وجود متناقض. في اعماقه صورة الكمال، وكنوز الدهر الآتي. الله مطبوع فينا. الا ان انسانيتنا ساقطة لأنها تخلت عن الله. لهذا فنحن اسرى قطبين يتصارعان فينا: الكمال من جهة، والتمزق والمعطوبية من جهة ثانية.

المسيحية تصر على معطوبية الانسان، وتدعو الى وجوب رأب الصدع في المسيح يسوع. الانسان ممزق لأن عواصف الاهواء والشهوات تحدق به من كل صوب. نحن لسنا سوداويين لمجرد اننا ننادي بمعطوبية المخلوق. نحن صادقون لأن هذه حقيقتنا الراهنة. الا اننا لسنا طوباويين لكوننا ننشد العتق والخلاص من هذه المعطوبية. ان

خلاصنا قابل ان يتحقق في المسيح الرب، ان نحن اقلعنا عن هشاشتنا وجعلنا كل رجائنا في الرب.

لقد صدق من قال ان الانسان وتر مشدود بين قطبين يتنازعانه: الحيوان والاله. ولكن من الخطورة بمكان ان نبالغ في وصف حيوانيتنا على حساب الاله الذي فينا. ومن الجهل ان نشدد على هذا الاله، ونحن نحتفظ بمعطوبيتنا. الانسان هو السر الذي لا يفهم خارج خالقه.

ولكن كيف لنا ان نسبر اغوار طبيعتنا؟ لقد افلح علم النفس في كشف الاعماق، لكن الحلول الكاملة ليست في يد النفسانيين السابرين في الاعماق. إن حاجتنا كبيرة الى معرفة مقومات الانسان، وطبيعة الانسان، وحقيقة الانسان. من هنا فإن الذين يتطاولون على من يدرسون الانسان، انما هم في العمق اناس لا يريدون من البحر الا شاطئه، ومن الجبال، سفوحها.

الانسانية الممزقة لم تفقد يوماً ايمانها بوحدة الانسان. ان وحدة النوع البشري هي فوق فوارق الحضارات والاجناس والسلالات والطبقات والطوائف[1].

وهكذا فإن مشكلة الانسان لهي مأساة كبرى هيهات لنا ان نحتويها باليراع والفكر. لكننا امل ان الفكر قادر ان يشخص شقاءنا. والرجاء ان الله قادر ان يشفينا.

ليس طريق الانسانية محفوفاً بالورود والرياحين. انه درب شائك ووعر. انه طريق لن نسلكه الا اذا فهمنا ان مسيرتنا فيه هي بصحبة كل الانسانية. درب الانسان هو درب الحرية، وانت تكون حراً اذا

(1) E. Mounier, "Le personalisme", Paris, 1950, p.: 47-48.

ادركت انك في عالم لن يزدهر بدون مشاركة الاخرين.

ماذا عن هذا الكتاب؟

يقوم هذا الكتاب على طريقة السؤال والجواب. يطرح الاسئلة راهب شاب، اما الاجوبة فيعطيها ناسك شيخ. وكل ذلك يأتي ليجعل الكتاب بمثابة فيلوكاليا صغيرة، تستعرض العقيدة المسيحية وسر الفداء.

الغاية من الكتاب ان يصبح المرء مواطن السماء ومعلماً صالحاً وفلاحاً يغرس البذار النافعة في صحراء قلبه.

لا يبدو الكتاب غريباً عن "٤٠٠ قول في المحبة"، حيث يجعل القديس مكسيموس كل شيء متمحوراً حول المحبة، وقائماً على المحبة.

وضع الكتاب في كيزيكوس (القسطنطينية) في السنة ٦٢٦ على نحو ما يقول بعض الدارسين. الاّ أن آخرين يرفضون نسبته للقديس مكسيموس. ولكن، هذا ليس ذا شأن، بالنظر الى القيمة الروحية التي للكتاب.

اسأل الفادي الرب ان يعطينا شفاعة القديس مكسيموس المعترف، وان يسكب علينا نعمته كي نحب الفضيلة ونسلك درب الخلاص. آمين.

الأب منيف حمصي.

القديس مكسيموس المعترف

١- اعماله:

بدأ القديس مكسيموس المعترف بالكتابة في سن متأخر. وضع اعمالاً في مجالات عدة، سأحاول ان ادوّنها مسجلا اياها بحسب مواضيعها:

في التفسير:

من الملاحظ في مجال التفسير، ان القديس مكسيموس لم يتناول تفسير كتب كاملة، بل انتقى مقاطع مهمة ذات مغزى محدد. اختار المقاطع الكتابية على اساسين: الاول، وينبع من ذوقه واختياره. أما الثاني، فجاء على اساس اختيار الاخرين وتساؤلاتهم واسئلتهم ومشكلاتهم. أما اسلوبه الى ذلك، فجاء على اساس مناقبي وروحي. لقد برع القديس مكسيموس المعترف رغم القليل القليل الذي قدّمه لنا على صعيد التفسير. فقد جاءت اعماله رائعة. سكب فيها خبرته الروحية العميقة، فكانت درراً حقيقية تخلب الالباب.

١- عنده (٧٩) جواب على اسئلة مختلفة طُرحت عليهُ وكانت

تتناول مشكلات رعائية وعامة. دوّنت على الارجح قرابة سنة ٦٢٦م (PG ٩٠ - ٧٨٥ - ٨٥٦).

٢- وضع رسالة بعنوان: (الى ثيوبمبتس)، وفيها يفسّر ثلاث ايات كتابية مدونة كاملة في الفيلوكاليا (PG ٩٠ - ١٣٩٣ - ١٤٠٠).

٣- وضع رسالة بعنوان: (الى ثالاسيوس). وثالاسيوس هذا، كان كاهنا راهبا ورئيس دير في ليبيا. ومحتواها يجيب على تساؤلات كتابية عدة طرحها عليه ثالاسيوس بمناسبة اقتراب موعد سفر مكسيموس الى افريقيا. وردت كاملة في (PG ٩٠، ٢١٥). والجدير بالذكر، ان اعماله التفسيرية، لم تدرس درساً وافياً بعد.

٤- وضع القديس مكسيموس تفسيراً لأعمال اباء قديسين، امثال ديونيسيوس الاريوباغي، وغريغوريوس اللاهوتي (PG ٤ - ١٩ - ٤٣٢) و (PG ٤ - ٥٢٧ - ٥٧٦). وبعمله هذا، جعل ديونيسيوس الاريوباغي تحت دائرة الضوء، حتى ان يوحنا سكوت صرّح علناً انه عرف ديونيسيوس من خلال مكسيموس.

في الدفاع والعقيدة:

١- وضع القديس مكسيموس اعمالاً ضد المونوفيزيتيين والمونوثيليتيين. ويمكن تصنيف ما كتب في هذا الباب، تحت سلسلة من المجلدات الضخمة.

٢- وضع كتاباً وجّهه الى كاهن يدعى مارينوس في جزيرة قبرص تناول فيه مسألة قوى النفس، وتعرّض تباعاً لمسألة مشيئة المسيح: واحدة ام اثنان؟ (PG ٩١ - ٩ - ٣٧).

٣- وضع كتاباً آخر وجهه الى مارينوس المذكور تناول فيه مسألتي القوى والمشيئة في طبيعتي المسيح الجسدية والالهية (٥٦ - ٤٥ -

٩١ PG).

٤- ألّف كتاباً وجهه الى جاورجيوس الكاهن ورئيس الدير تناول فيه مسألة «سر التجسد الالهي» (٦١ - ٤٥ - ٩١ PG).

٥- له اجوبة موجزة على مسائل ثلاث تتناول عقيدة المشيئة الواحدة (٦٥ - ٦٤ - ٩١ PG).

٦- له مقالة جميلة حول: (ان امكن أبعد عني هذه الكأس) تقوم على تفسير كنسي أصيل ضد اتباع المشيئة الواحدة (٦٩ - ٦٥ - ٩١ PG).

٧- وضع مجلداً عقائدياً بعث به الى مارينوس الشماس في قبرص يتناول فيه عقائدياً مسألة الفعلين والمشيئتين في المسيح يسوع (٨٩ - ٦٩ - ٩١ PG).

٨- له رسالة الى نيكانذروس الاسقف يتكلم فيها عن الفعلين في المسيح (١١٢ - ٨٩ - ٩١ PG).

٩- رسالة ضد القائلين بثلاث مشيئات في المسيح مع ثلاثة افعال (١٣٢ - ٩١ PG).

١٠- رسالة الى مارينوس الكاهن في قبرص حول انبثاق الروح القدس وتنزيه يسوع عن كل خطيئة (١٣٧ - ١٣٣ - ٩١ PG).

١١- مقطع من رسالة كتبت في روما (١٤٠ - ١٤١ - ٩١ PG).

١٢- مقطع من رسالة له الى بطرس، حفظت في اللاتينية (١٤٤ - ١٤١ - ٩١ PG).

١٣- مقالة حول طبيعتي المسيح تعتبر من اقدم اعماله الكتابية (١٤٩ - ١٤٥ - ٩١ PG).

١٤- مقالة يحدد فيها عبارة مهمة تتعلق بعلم الثالوث وعلم الخريستولوجيا (١٥٣ - ١٤٩ - ٩١ PG).

١٥- مجلد روحي وعقائدي بعث به الى الاسقف استفانوس (في دورا من اعمال فلسطين (١٨٤ - ١٥٣ - ٩١ PG).

١٦- مقالة حول (مشيئتي المسيح) (٢١٢ - ١٨٤ - ٩١ PG).

١٧- مقالة يحدد فيها عبارات تتعلق بالاتحاد بين طبيعتي المسيح (٢١٦ - ٢١٣ - ٩١ PG).

١٨- اجوبة على تساؤلات الشماس ثيودور المونوثيليتي، بعث بها الى صديقه مارينوس في قبرص بطلب منه (٢٢٨ - ٢١٦ - ٩١ PG).

١٩- مجلد عقائدي بعث به الى مارينوس الكاهن في قبرص (٢٤٥ - ٢٢٨ - ٩١ PG).

٢٠- مقالة الى ثيودور الكاهن في صقلية حول الصفات والجوهر في المسيح (٢٥٧ - ٢٤٥ - ٩١ PG).

٢١- مقاطع من مجمع خلقدونيا (٢٦٠ - ٢٥٧ - ٩١ PG).

٢٢- مقالة عن الجوهر والاقنوم مطعّمة بأقوال ابائية (٢٦٨ - ٢٦٠ - ٩١ PG).

٢٣- مقالة له في استحالة ان يكون للمسيح طبيعة واحدة فقط (٢٦٩ - ٢٦٨ - ٩١ PG).

٢٤- مقالة من عشرة فصول حول مشيئة الرب بعث بها الى بعض الارثوذكسيين (٢٧٣ - ٢٦٩ - ٩١ PG).

٢٥- مقالة هي بمثابة جواب فلسفي ولاهوتي يتعلق بتحديدات عقائدية خريستولوجية بعث بها الى الراهب ثيودور (٢٨٠ - ٢٧١ -

٩١ PG).

٢٦- حوار مع بيرن ذو قيمة علمية كبيرة، وذلك بغرض معرفة موقف مكسيموس من المونوثيليتيين (٣٥٣ - ٢٨٨ - ٩١ PG).

٢٧- مقالة في الصلاة، روحية، لكنها كثيفة (٣٦١ - ٣٥٣ - ٩١ PG).

اعماله الليتورجية:

اعماله الليتورجية حفظت لنا، وهي كالتالي:

١- شروحات حول الفصح (١٢٨٠ - ١٢١٧ - ٩١ PG).

٢- تفسير جميل للصلاة الربانية بعث به الى شخص يدعى فيلو خريستوس (٩٠٩ - ٨٧٢ - ٩٠ PG).

٣- الميستاغوجيا الشهيرة التي ترجمت الى التركية ايضاً (٧١٧ - ٦٥٧ - ٩١ PG). وفيها تفسير رمزي رائع للصلوات.

النسكيات:

١- وضع القديس مكسيموس كتابات في النسك، وفي قائمتها (المئويات الاربع في المحبة) وفيها يرسم السبيل الى معرفة الله فيتناول الفاظاً ارثوذكسية كالمحبة واللاهوى والمعرفة النظرية والتطبيقية، فيحددها بالمعاني التي اخذ بها اللاهوتي غريغوريوس وافاغريوس. وضعها بعد وقت قليل من مغادرته لكيزيكوس بين سنوات (٦٢٨ - ٦٣٠).

٢- كتاب: (فصول في اللاهوت والتدبير)، ويقع في مئويات اثنين (١١٧٦ - ١٠٨٤ - ٩٠ ب ج). وضعها بين ٦٣٠ - ٦٣٤م، وفيها نجد تأثير اوريجنس وافاغريوس عليه. انه محاولة تلفيقية، للتوفيق

والجمع بين تعاليمهما والروح الارثوذكسية، رغم شجب المجمع المسكوني الخامس لهما.

٣- المقالة النسكية (٩٥٦ - ٩١٢ - ٩٠ ب ج) ويشك الدارسون للباترولوجيا الارثوذكسية في اصالة نسبتها الى القديس مكسيموس المعترف.

٤- فصول مختلفة في اللاهوت والتدبير والاخلاق، وتقع في مئويات خمس...

٢- سيرته:

القديس مكسيموس المعترف هو عصارة مدارس عريقة ومتجذرة في القدم. تمثّل في ذاته خلاصة فكر ديونيسيوس المنحول واوريجنس. انه شخصية لاهوتية فذة. تشرّب روحية اوريجنس وهضم هضماً كاملاً كل اعمال ديونيسيوس المنحول، دون ان يكون امتداداً لسابقيه. له الفضل الاول والكبير في دحض بدعة المشيئة الواحدة (Monothelitism) والقوة الواحدة (Monenergism).

برع القديس مكسيموس في استخدام القاموس الارسطوطاليسي، وكل المفاهيم الفلسفية الاغريقية القديمة. تمثّل منطق ارسطو على نحو يبدو جلياً من كتاباته. وكراهب تيّمه الحب الالهي، وأخلص لنذور معموديته، فهو بحق من عمالقة القديسين الكبار في الالف الاول للميلاد، لما يتسم به فكره اللاهوتي، من سداد في الرؤيا، ودقة في وصف خبرة التيار الاباثي العريق. يعتبر القديس مكسيموس واحداً من اصعب الاباء، فقد جاء اسلوبه على نمط فلسفي. يحتاج القارئ الى براعة في الاستنباط والتحليل والاستنتاج كي يطالعه ويفهمه. وعلى غرار الكثيرين من الاباء، كان مكسيموس فلسفياً في اسلوبه، او قل سكب اللاهوت في لغة عصره وزمانه. وقد دفع ذلك يوحنا الدمشقي

قديسنا وشفيعنا الى تسميته: «فيلسوف الالهيات».

لم يكن مكسيموس كاهناً ولا رئيس دير، بل مجرد راهب. والراهب في العرف الشرقي علماني. الاّ ان قلب مكسيموس التهب بالعشق الالهي والسيرة الملائكية، فقام يجري وراء الحياة الدائمة، وصار اباً من آباء الكنيسة الكبار. ونظراً لمواهبه وقدراته العقلية الهائلة، فقد اسهم في مجامع عدة محلية في افريقيا، ولعب دوراً بارزاً في مجمع لاتران (٦٤٩م). هو بيزنطي ثقافةً، قويم الرأي معتقداً. يراه الكثيرون من دارسي الباترولوجيا أباً مدافعاً، ولاهوتياً مميزاً، وكاتباً نسكياً بارعاً دقيقاً وعميقاً، ورائداً من رواد التراث الافذاذ. اضف الى كل هذا، مقدرته العجيبة، وباعه الطويل في علم التفسير، فقد جعله البعض في خانة الصفوة من شرّاح الكلمة (Exegete). يمتاز مكسيموس بتجذره في التقليد الحي، وقدرته العجيبة على التقرّب من الله الانسان (God-man) يسوع المسيح. وقد اتسم بتمكنه من تقريب الانسانية من الله. لقد جاز فيه ما وصفه به البعض: (اللاهوتي)، اسوة بغريغوريوس ويوحنا وسمعان اللاهوتي الجديد، نظراً لتحليقه الدائم في الالهيات.

استعمل مكسيموس اعمال افاغريوس البنطي، وديونيسيوس المنحول واوريجنس، ودان بالكثير للاباء الكبادوكيين لاسيما منهم غريغوريوس النيصصي. طالع اعمال القديس كيرلس الاسكندري. ويقال بعضّة الشفة والتحسر، وجرأة وحزن، ان اعماله ما تزال تحت الغبار تنتظر من ينقّب فيها ويدرس تفاصيلها لكشف هذا العملاق الكبير الذي ما يزال اكثر الاباء غموضاً وصعوبة وفهماً. كتبت حياته الفريدة وسيرته العطرة بعد سنوات من رقاده ابّان المجمع المسكوني السادس (٨١ - ٦٨٠م).

جعل القديس مكسيموس الايمان بالمسيح المعيار الاوحد في حياته.

فعاش له، وشهد له، واعترف به، ومات من اجله.

ولد القديس مكسيموس المعترف[1] سنة ٥٨٠م. تلقى علومه ايام غريغوريوس الكبير. درس الحساب والموسيقى والهندسة والفلك والفلسفة واللاهوت. ارتكزت فلسفته على قاعدة افلاطون وارسطوطاليس. اعتبره الكثيرون من دارسيه علماً من اعلام الافلاطونية المستحدثة (neo-platonism). أحب الادب الماورائي (metaphysics). وقد التهب منذ الصبا بحب السيرة الملائكية (الرهبنة). قادته ثقافته الواسعة الى دنيا البلاط الامبراطوري، حيث تعرّف وتقرّب ولمع في الصداقات الاريستقراطية، ومخالطة الصفوة. والعيش في نطاق الصفوة، لذة ما بعدها لذة، لما يتحلّون به من لياقات وامور تعود بالفائدة والنفع على من امتطى عربة ايليا وحلّق في ذرى الكمال المتعذر وصفه. وفي تواجده في البلاط، قطف مكسيموس لغة الكبار، ودماثة الاخيار، وغب حتى الثمالة من الاعراف الديبلوماسية والدهاء العالمي. الاّ ان خدمته في البلاط لم تدم طويلاً، فقد اختطفته الدعوة الرهبانية من ذرى الامجاد الدنيا، الى قمم امجاد الدين، فأنسته مجالسة الكبار والاستماع الى اهل الرأي والفكر في ذلك الزمان. ومن يدري فربما كان البلاط اطاراً للنفور من ديبلوماسية اهل الارض، او انطلاقة نحو الثابت وغير المتحول. ان البواعث السوسيولوجية التي دفعته الى الرهبنة، ما تزال رهينة سره الكبير الذي لا يعلم به غير الواحد.

انقطع مكسيموس الى دير سكوتارى الرابض على الضفة الاسيوية للقسطنطينية عاصمة الشرق القديم، وحاضنة السر البيزنطي. قال فيه كاتب سيرته بحق بأن عشقه للرهبنة، هو الذي دفع به الى التخلّي عن كل شيء،طمعاً بمجالسة رب الارباب وملك الملوك. وما ان دخل

(١) يرى بعض العلماء ان بلدة خسفين السورية، منطقة الجولان، هي مسقط رأسه.

الدير، حتى أبدى تقدماً ملحوظاً، فقد قطع اشواطاً كبيرة في امد قصير، وسرعان ما صار له تلميذ يدعى ناهض = انستاسيوس، الذي تشرّف بمرافقته حتى آخر حياته واشترك معه في الشهادة الحمراء. بعد سنوات من مرافقة انستانيوس له، غادر مكسيموس الدير، لينضم الى رهبنة القديس جاورجيوس في سيزيكوس، التي هي (إرديك) حالياً. في هذا الدير، دوّن لنا اغلب اعماله، على الارجح. ومن سيزيكوس بعث برسائله الشهيرة الى يوحنا شامبرلين. في هذا الدير انطلق عمله الشهير (AmbiGUA)، رغم انه تبوّب نهائياً بعد وصوله الى افريقيا. ويطول الكلام لو سلّطنا الضوء على هذا العمل في هذا المجال الضيق. الا ان مكسيموس يطل علينا في هذا العمل معارضاً لاوريجنس. مكث مكسيموس في سيزيكوس قرابة السنة، وكان يرجو ان يكون تراب الدير حاضن عظامه. هذا وتتسم سيرة مكسيموس بثلاثة فروع:

١- حياته الرهبانية.

٢- صلاته بوجهاء افريقيا.

٣- اعماله ضد اتباع القوة الواحدة والمشيئة الواحدة.

طُرح القديس مكسيموس في السجن، في القسطنطينية بسبب الوشايات التي حيكت ضده من قبل المونوثيليتيين، فذاق الامرين. ارسل مكسيموس الى المنفى بعد سجن طويل، فذاق صنوف الالم والمعاناة في بلاد آسيا النائية حتى موته على الايمان بالرب. تعيّد له الكنيسة في مناسبتين:

١- ٢١ كانون الثاني ذكرى وفاته.

٢- ١٣ آب ذكرى قطع لسانه ويده.

الا ان فرادة سيرته تنحصر في مساهمته اللاهوتية الرائعة، ضد اتباع المشيئة الواحدة. ماذا قال مكسيموس بصدد هذه الهرطقة؟

المجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينية ٦٨٠م، نظر في مسألة القائلين بالمشيئة الواحدة والفعل الواحد في المسيح. وقد انبرى ضد هذه البدعة المغرضة اثنان عظيمان: ١- صوفرونيوس الدمشقي اسقف اورشليم. ٢- والقديس الراهب مكسيموس المعترف. وقد عقد في الغرب مجمع لاتران (٦٤٩م) تناول هذا الامر. خلاصة موقف القديس مكسيموس المعترف هي وقفة ابائية كعهدنا مع كل الآباء السابقين: الاباء نسبوا الفعل والمشيئة الى الجوهر لا الى الاقنوم، في المسيح. فطالما ان يسوع ذو طبيعتين (الهية، وانسانية)، فهو ذو فعلين ومشيئتين. فيسوع عنده فعل الهي وفعل انساني، ومشيئة الهية، ومشيئة اخرى انسانية. للاستزادة، راجع مجموعة الشرع الكنسي صفحة ٤٩٢، ٤٩٣، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٠، ... كذلك راجع كتاب سر التدبير الالهي لسبيرو جبور (ص ١١٩ - ١٥٤). راجع ايضاً كتاب: «المسيح في الفكر المسيحي الشرقي» للأب يوحنا مايندورف. الكتاب عسير وصعب، لكنه دقيق وبالغ الاهمية.

القديس مكسيموس المعترف علم من الاعلام في تاريخ الكنيسة. انه الاصعب كتابة بين جميع الاباء. فهو يتفوّق على الدمشقي يوحنا وغريغوريوس بالاماس في صعوبة الانشاء. اسلوبه عسير كأسلوب أغلب المثقفين، رغم ان الثقافة لا تدعو الى التصعيب والتعقيد. لن اطيل، فأنا مهما قلت، لن أفي هذا القديس حقه. انما ارد القارئ ان رغب، الى المراجع يستطيع فيها ان يجد ضالته ومبتغاه من غوامض هذا الاب وجمالاته. كذلك فان الليتورجيا الارثوذكسية، تطل على وجه من وجوه سيرته وفكره، ولا يمكن الاستغناء عنها للتعرف عليه. عساني بعد هذه الكلمة البسيطة، اكون قد اسهمت في صورة سريعة وعامة في تبيان ملامح هذا القديس والكاتب الكبير.

المقالة النسكية
في
سؤال وجواب

١- سأل اخ شيخاً وقال له:

ارجوك يا ابت اخبرني: ما الغاية من تجسد الرب؟

اجابه الشيخ وقال له:

عجبي يا اخي انك تسألني عن ذلك طالما انك تتلو دستور الايمان كل يوم!

الا اني سأخبرك:

كان تجسد الرب من اجل خلاصنا.

فقال الأخ: وكيف ذلك يا ابت؟

اجابه الشيخ: في البدء خلق اللّه الانسان، وأقامه في الفردوس: «فأوصى الرب الاله آدم قائلاً:

من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر، فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها، موتاً تموت» (تكوين٢: ١٥-١٧). الا أن الانسان عصى وصية الله. وهكذا، صار (الانسان) عرضة للفساد والموت[١].

ورغم العناية الالهية التي كانت ترعى الانسان، من جيل الى جيل، فقد استمر الانسان يتقدم نحو الاسوأ، منقاداً من الاهواء الجسدية الكثيرة، الى اليأس من الحياة.

لهذا السبب، فإن ابن اللّه الوحيد، كلمة الآب ومصدر الحياة والخلود، قدم الينا نحن الجالسين في الظلمة وظلال الموت: «الشعب السالك في الظلمة ابصر نوراً عظيماً. الجالسون في ارض ظلال الموت، اشرق عليهم نور» (اشعيا

(١) رومية ١٢: ٥-١٥.

٩:٢)، (متى ٤:١٦)، وأخذ جسداً من الروح القدس، ومن البتول القديسة (مريم)، وأرانا طريقاً الهية للحياة.

ثم اعطانا الوصايا المقدسة، ووعد بالملكوت السماوي اولئك الذين يحيون بمقتضى الوصايا. أما الذين يعصونها، فتوّعدهم بالجحيم الأبدي.

ثم احتمل بعد ذلك الآلام الخلاصية، وقام من بين الاموات، واهباً ايانا رجاء القيامة والحياة الابدية. وبطاعته اعتقنا من لعنة الخطيئة. أما بموته، فإنه داس قوة الموت (عبرانيين ١٤:٢):

و«بما أن الموت بانسان، فبإنسان ايضاً قيامة الاموات. فكما في آدم يموت الجميع، كذلك، في المسيح سيحيا الجميع» (١ كور ٢١:١٥-٢٣).

ثم صعد الى السموات، وجلس عن يمين الآب. وارسل الروح القدس كعربون لنا مع الحياة الجديدة، وذلك كي ينير ويقدس نفوسنا، ويعين الذين يجاهدون، كي يحفظوا الوصايا، من اجل خلاصهم. هذا هو باختصار الهدف الذي من اجله تجسد الرب.

٢- فقال الأخ: اود يا ابت ان اسمع منك عن الوصايا: ما هي الوصايا التي ينبغي ان احفظها كي اخلص.

اجابه الشيخ: الرب نفسه بعد قيامته، قال للرسل: «اذهبوا وتلمذوا جميع الامم معمّدين اياهم بإسم الآب والابن والروح القدس. وعلّموهم ان يحفظوا كل ما اوصيتكم به، وهاءنذا معكم طول الايام الى منتهى الدهور» (متى ٢٠:٢٨).

هكذا يتوجب على كل من اعتمد بإسم الآب والابن والروح القدس المحيي والمؤله، ان يحفظ كل ما اوصى به الرب.

ولهذا السبب جعل الرب حفظ الوصايا مرادفاً للإيمان الصحيح. لقد عرف السيد ان الايمان بدون الوصايا، او الوصايا بدون الايمان، عاجزة عن منح الخلاص للانسان. ولما كان داوود ذا ايمان صحيح، قال: «لأجل هذا حسبت كل وصاياك، في كل شيء، مستقيمة»(مزمور ١٢٨:١١٩). لقد قوّمتنا وصايا الرب بإزاء سبيل الشر. وان إتفق ان حذفت احدى هذه الوصايا، فهذا من شأنه ان يؤدي الى سبل الاثم المعوّجة.

٣- ثم قال ألاخ:

ومن يا ابت، يستطيع ان يحفظ كل الوصايا؟ انها كثيرة.

اجابه الشيخ فقال:

يستطيع ذلك كل من اقتدى بالرب، وتبع خطاه.

فقال الأخ:

ومن يستطيع ان يقتدي بالرب؟

ولئن صار الرب انساناً، الاّ انه اله ايضاً. اما انا فإنسان خاطئ ومستعبد لكثرة من الاهواء.

كيف اذاً استطيع ان اقتدي بالرب؟

اجابه الشيخ: ليس احد من المستعبدين للأمور الدنيوية قادراً ان يقتدي بالرب، فقط اولئك الذين يقدرون ان يقولوا:

«ها قد تركنا كل شيء وتبعناك»(لوقا ٢٨:١٨)

هؤلاء فقط، يستمدون القوة للاقتداء به، والسير في حفظ وصاياه. فقال الأخ:

وما نوع هذه القوة؟

اجابه الشيخ: اسمعه يقول:

«لقد اعطيتكم القوة لتدوسوا الحيّات والعقارب وكل قوة العدو، فلا يضركم شيء» (لوقا ١٩:١٨).

٤- والآن، بولس نفسه، سبق ان تسلّم القوة نفسها، والسلطان ذاته، فقال:

«اقتدوا بي كلكم، ايها الاخوة، كما انا بالمسيح».(فيليبي ٣:١٧).

وايضاً:

«وليس بعد الآن من حكم على الذين هم في المسيح، لأن شريعة الروح الذي يهب الحياة في يسوع المسيح، قد حررتني من شريعة الخطيئة والموت» (رومية ٨:١-٣).

وايضاً:

«وأقول: اسلكوا سبيل الروح فلا تقضوا شهوة الجسد، لأن الجسد يشتهي ضد الروح، والروح يشتهي ضد الجسد....» (غلاه :١٦-٢٢).

وايضاً:

«فالعالم صلب لي، وانا صلبت للعالم» (غلاطية ٦:١٤)

٥- لقد تنبأ النبي داوود عن هذا السلطان، (القوة)، وهذا العون، فقال:

«الساكن في عون العلي، في السموات يقيم. اقول للرب ملجأي وحصني، الهي فأتكل عليه، لأنه ينجيك من فخ الصياد، ومن الوباء الخطر...» (مزمور ٩١:١-٣).

ويضيف: «لأنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك في كل طرقك وعلى الايدي يحملونك لئلا تصدم بحجر رجلك. على الأسد والافعى تطأ، الشبل والثعبان تدوس. لأنه تعلّق بي أنجّيه...» (مزمور ٩١).

اما الذين استسلموا للشهوات، ومحبة الأمور الدنيوية، فاسمع ما يقوله فيهم: «... من احب أباً واماً اكثر مني، لا يستحقني» (متى ١٠:٣٧)

وفيما بعد يقول: «ومن لا يحمل صليبه ويتبعني، لا يستحقني» (متى ١٠:٣٨)

وايضاً:

«... من اراد ان يأتي ورائي، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني. ومن اراد ان يخلّص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من اجلي، فهذا يخلّصها» (لوقا ٣٣:٩-٣٤).

اذاً، من يُرد ان يكون تلميذه، ويُرِدْ ان يكون جديراً به، ويستمد منه القوة ضد الارواح الشريرة، عليه ان يتجنّب كل علاقة شهوانية، ويتعرى من كل هوى دنيوي، ويجاهد ضد الاعداء غير المنظورين، وذلك بالوصايا، تماماً كما اعطانا الرب، وكان هو نفسه مثالاً لنا. فقد جرّب في البرية من ابليس، ومن ثم أعيد الى العالم بواسطة خدّامه (الملائكة).

٦- فقال الأخ:

الا ان وصايا الرب كثيرة يا ابت، فمن يستطيع ان يعرفها كلها، وذلك كي يجاهد من اجلها، لاسيما انا الضعيف الذاكرة ؟ لذا ارغب ان اسمع منك تفسيراً مقتضباً، احفظه في قلبي لأخلص به.

فأجابه الشيخ:

يا اخي، حتى ولو كانت الوصايا كثيرة في العدد، الا انه يمكن اختصارها بكلمة:

«احبب الرب الهك من كل قوتك، ومن كل ذهنك، وقريبك كنفسك» (مرقس ١٢:٣٠-٣٢)

ومن يجاهد كي يحفظ هذه الكلمة، فإنه يُفلح في كل الوصايا.

إن من لا يبتعد عن الامور الدنيوية. كما قيل آنفاً، لا يستطيع ان يحب الله بحق، ولا القريب ايضاً. لأنه يستحيل، ان يكون-كإنسان- للعالم ولله، في آنٍ معاً.

وهذا ما يؤكده الرب بقوله:

«لا تستطيع أن تعبد ربين: الله والمال» (لوقا ١٦:١٣).

اذا التصق العقل بأمور الدنيا، فإنه يصبح عبداً لها، فيزدري الله. ومن يزدرِ الله، يخالف وصاياه.

٧- فقال الأخ:

وما هي الأمور الدنيوية التي كلامك عليها يا ابت؟

اجابه الشيخ: الاطعمة، الاموال، الممتلكات، المجد، الاقارب، وغيرها...

فقال له الأخ:

ولكن يا ابت، اليست هذه من صنع الله، وقد اعطاها للانسان كي يستعملها؟ كيف اذاً يأمرنا الله الاّ نتعلق بها؟

اجابه الشيخ وقال: من الأكيد ان الله اوجدها واعطاها للناس كي يستعملوها.

اجل، كل ما هو من صنع الله حسن، واذا استعملناه، كما يليق، ينبغي ان نشكر الله. بيد اننا ضعفاء روحياً، وعقلنا ملتصق بالمادة. لذا، فقد آثرنا الماديات على وصية المحبة. وما دمنا متعلقين بالماديات، فإننا نخاصم الناس، بينما ينبغي ان نؤثر محبة كل انسان- التي هي الدليل على معرفتنا لمحبة الله- على كل ما هو منظور، بما في ذلك الجسد ايضاً، وذلك عملاً بقول الرب في الاناجيل: «من يحبني، يحفظ وصاياي» (يوحنا ١٤:١٥).

وما هي الوصية التي متى حفظناها، نكون في محبة الله؟

اسمعه هو نفسه يقول: «وصيتي هي ان تحبوا بعضكم بعضاً» (يوحنا ١٥:١٢). أترى كيف ان محبتنا لبعضنا هي انعكاس (برهان) محبتنا له؟

ان محبتنا له، هي كمال كل وصية (رومية ١٣:١٠). لهذا السبب عينه، فإن الرب يدعو كل من اراد ان يكون له تلميذا

الاّ يكون متعلقاً بالأمور الدنيوية، لا بل ان ينعتق من كل مقتنياته المادية، وان ينشغل بالكنوز الروحية فقط.

٨- فقال الأخ:

قلت يا ابت، انه يتوجب علينا ان نحب كل انسان اكثر من كل الأمور المنظورة، لا بل اكثر من جسدنا نفسه. ولكن، كيف استطيع ان احب من يمقتني ويسيء الي؟ لنفترض انه حسود، ويبغي الاساءة إلي للايقاع بي في فخاخه، فكيف استطيع ان احبه؟ هذا يبدو مستحيلاً يا ابت، فمرارة الحزن ترغمني- بالطبيعة- ان انفر ممن يحزنني.

اجابه الشيخ:

هذا يبدو في الحقيقة مستحيلاً على الزواحف والحيوانات التي تتحرك بقوة الغريزة، اما الذين خلقوا على صورة الله-، ويتحركون بالعقل، الجديرون بمعرفة الله، ومنه يستمدون ناموس حياتهم- فأمرهم يختلف، ليس فقط لكونهم لا ينفرون ممن يحزنهم، بل لكونهم يحبون كل الذين يكرهونهم ايضاً. والرب عندما يقول: «احبوا أعداءكم، واحسنوا الى الذين يسيئوون اليكم» (متى ٥:٤٤) (لوقا ٦:٢٧)، فهو لا يطلب المستحيل، بل الممكن، والا، فكيف يوبخ من لا يسلكون حسب الوصية؟ وقد اوضح لنا ذلك بالأفعال التي صدرت عنه (عملها). كذلك كان حال تلاميذه الذين جاهدوا حتى الموت من اجل محبة القريب، وصلوا بحرارة من اجل الذين كانوا يقتلونهم.

لكن بما أننا نحب امور العالم، وملذات العالم، ونؤثر

الدنيويات على الوصية، فنحن لن نقوى على محبة الذين يسيؤون الينا، لأننا كثيراً ما نبغض الذين يحبوننا بسبب من تعلقنا بالعالم، كوننا اصبحنا ادنى من الزواحف، واسوأ من الوحوش. لهذا السبب لا نقوى على السير في طريق الله، ونعجز عن ادراك مقاصده التي تمدّنا بالقوة.

٩- فقال الشيخ:

انظر يا ابت، ها قد تركت كل شيء، الاقرباء، المقتنيات، الرفاهية والمتع المختلفة، وكل مجون الدنيا، ولا املك في حياتي الاّ جسدي، ومع هذا، فأنا لا ازال عاجزاً عن محبة من يمقتني ويهملني، علماً اني اجاهد كي لا ابادله الشر بالشر.

قل لي اذاً، ماذا ينبغي ان اعمل كي احبه من كل قلبي، وكي احب كل من يسيء الي، ويفكر فيّ بالسوء بأي شكل من الاشكال؟ اجابه الشيخ وقال: يستحيل على المرء ان يحبّ من يمقته حتى ولو بدا انه تخلىعن امور الدنيا. ينبغي اولاً، ان يدرك مقاصد الله من هذه المحبة. واذا استطاع ان يدرك ان الرب احبه، وجدَّ في السير عملاً بوصاياه، عندها يقوى من كل قلبه على محبة من يمقته ويسيء اليه، تماماً كما احب الرسل مبغضيهم بعد ان ادركوا محبة المسيح.

١٠- فقال الأخ:

وما هي مقاصد الرب يا ابت؟ ارجوك، اريد ان اعرفها.

اجابه الشيخ وقال:

اذا اردت ان تدرك مقاصد الرب (من المحبة)، فاسمع بتعقّل: ربنا يسوع المسيح، الاله بالطبيعة، شاء لمحبة منه، ان يصير انساناً، فولد من امرأة، وصار تحت الناموس، حسب قول الرسول:

«... لما حان ملء الزمان، ارسل الله ابنه مولوداً من امرأة، مولوداً تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني.» (غلاطية ٤:٤)

ولما تجسد، وصار انساناً، حفظ الوصية، ورفع اللعنة القديمة عن آدم. الرب يعرف ان الناموس كله والانبياء محتواة في هاتين الوصيتين:

«احبب الرب الهك من كل قلبك، وقريبك كنفسك» (متى ٢٠:٣٧).

لذا فالرب الذي صار انساناً، شاء منذ البداية، وحتى النهاية، ان يحفظ الوصايا كإنسان.

بيد ان ابليس،- الذي اغوى الانسان منذ البدء، وجعله تحت سلطان الموت-، عندما رأى الرب يتسلم في المعمودية، على يد يوحنا، شهادة الآب، ونزول الروح القدس المساوي له في الجوهر، عليه كإنسان (متى ٣: ١٦-١٧)، وعندما رآه يأتي الى البرية كي يجرَّب (من ابليس)، حاربه ظاناً انه يقدر بشكل من الاشكال ان يجعل المسيح يؤثر امور العالم على محبة الله. لقد ادرك ابليس ان ثمة اموراً ثلاثة تحرك كل انسان: الطعام، المال، والمجد، وبها يستطيع ان يقود الانسان الى الهلاك، فعمد اليها ليجرّب الرب في البرية. لكن ربنا انتصر في كل التجارب، وأمر ابليس ان يغرب عن وجهه (متى ٤:١-١١).

١١- هذه هي العلامة على محبة الله. كان ابليس عاجزاً بالوعود التي قطعها مع الرب[١]، ان يقنعه بخرق وصية (المحبة). لذا عمد الى اليهود[٢] الاشرار، والى الاعيبه الخاصة، وذلك لاقناع الرب، بالعدول عن البرية والعودة الى المجتمع، وذلك لجعل الرب يقدم على انتهاك الوصية المتعلقة بمحبة القريب.

كان السيد يعلّمنا سبل الحياة، ويقدم لنا السبيل الى السماء وكان يكرز بالقيامة من بين الاموات، فكان يعد المؤمنين بالحياة الابدية وملكوت السموات. اما غير المؤمنين، فكان يتوّعدهم بالجحيم الابدي، وتأكيداً لذلك، كان يجترح علامات الهية، ويدعو الجموع الى الايمان، الأمر الذي جعل ابليس يحرّك الفريسيين والكتبة كي يتألبوا ضده، لكونه مقت مشاريعهم.

لقد ظن ابليس ان الرب لن يقوى على احتمال مكرهم، وبالتالي سينال مبتغاه عندما يقود الرب الى كسر الوصية المتعلقة بمحبة القريب.

١٢- ولكن بما أن الربّ إلهٌ، فقد سبق ان عرف افكاره الخبيثة، فلم يمقت الفريسيين الذين تحركوا بتحريض من ابليس. وكيف يمقتهم وهو صالح بطبيعته؟ انما، لحبه لهم، قاوم من ألّبهم ضده، فعلّم ووبخ وأنّب وعمل الخير للاشرار، باستمرار. اما اولئك، فكانوا يتحرّضون من ذواتهم علماً انه كان في استطاعتهم، ان

١- في التجربة على الجبل قال ابليس ليسوع وفي اكثر من مرة: ان كنت ابن الله... هذه كانت بمثابة وعود (المعرّب)

٢- اشارة الى ترك البرية والتوجه الى جناح الهيكل لاخراج يسوع من العزلة المقدسة (المعرّب).

يرفضوا ايحاء ابليس. بيد أنهم تعاطفوا معه، بداعي كسلهم.

جدفوا على الرب، فكان طويل الاناة. تألم واحتمل صابراً، وذلك كي يظهر لهم كل افعال المحبة. قاوم ابليس، بمحبة الاشرار، فآثر المحبة على البغضاء. وبخيريته، طرد اب كل شر، لكونه سبق فصبر على شرور مبغضيه، وبالاحرى، لنقل الأمر على نحو اوضح: لقد جاهد واحتمل من اجلهم حتى الموت كإنسان، وذلك حفاظاً على وصية المحبة.

وبعد ان احرز الفوز الاخير على ابليس توّج نفسه باكليل القيامة، من اجلنا. وهكذا، جدد آدم الجديد، آدم الاول. هذا هو ما يعنيه الرسول الالهي بولس عندما يقول: «ليكن فيكم الفكر الذي كان في المسيح» (فيليبي ٢:٥).

١٣- هذه هي مقاصد الرب. فهو كإنسان، كان يطيع الآب حتى الموت، من اجلنا، وذلك كي يحفظ وصية المحبة.

كان يقاوم ابليس بالآلام التي تكبدها، والتي كانت تنزل عليه من الكتبة والفريسيين الذين قبلوا عمل ابليس. فلما غُلب بمحض ارادته، إنتصر على ابليس الذي كان يرجو ان يهزم المسيح، فانتزع العالم من سلطانه. لهذا، صلب المسيح بالضعف الذي في الطبيعة الانسانية (التي اخذها) (٢ كور ٣:١٣). وبهذا الضعف عينه، أمات الموت، وداس من كان له سلطان الموت (عب ١٤:٢). وبهذه الطريقة ايضاً اعتبر بولس نفسه مريضاً (٢ كور ٤:١٣)، فكان يفتخر بأوهانه وآلامه، لأنه بها يمتلك قوة المسيح (٢ كور ٩:١٢).

١٤- واذ ادرك بولس مثل هذه الغلبة، كتب الى اهل افسس يقول: «ليست حربكم ضد بشر من لحم ودم، بل ضد الرؤساء، ضد السلاطين» (افسس ١٢:٦). ثم بعد ذلك يقول لأهل افسس: «فاثبتوا ممنطقين احقاءكم بالحق، ولابسين درع البر. أنعلوا اقدامكم باستعداد انجيل السلام، حاملين فوق الكل ترس الايمان الذي به تقدرون ان تطفئوا جميع سهام الشرير الملتهبة» (افسس ١٤:٦).

وقال ايضا:

«اذاً انا اركض هكذا كأنه ليس عن غير يقين، هكذا اضارب كأني لا اضرب الهواء، بل اقمع جسدي واستعبده حتى بعدما كرزت للآخرين، لا اصير انا نفسي مرفوضاً» (١ كور ٢٦:٩-٢٧).

وايضاً:

«الى هذه الساعة نجوع ونعطش ونعرى ونلطم ولا قرار لنا. نتعب عاملين، نشتم فنبارك، نضطهد فنحتمل، يشنع علينا، فنتضرع. صرنا كأقذار العالم، ووسخ كل شيء الى الآن...» (١ كور ١١:٤-١٢).

وايضاً:

«في تعب وكدٍ. في أسهار مراراً كثيرة. في جوع وعطش. في اصوام مراراً كثيرة. في برد وعري. عدا ما هو دون ذلك. ألتراكم علي كل يوم، والاهتمام بجميع الكنائس...» (٢ كور ٢٧:١١-٢٩).

١٥- اما عن الجهاد ضد الشياطين التي اثارت شهوات الجسد، فقد اخرجها وطردها بضعف جسده. والذين حاربوهم بسبب الكراهية، الذين يثيرون المتقاعسين على الاتقياء، حتى انه تحت وطأة هذه التجربة يأتي الاتقياء الى مقت المتقاعسين وينتهكون وصية (المحبة) فلهؤلاء بيّن من جديد، وبالاعمال، طريق النصر والغلبة، فقال: «يشنّع علينا، فنتضرّع، نضطهد، فنحتمل...» (١ كور ٤:١٢-١٣).

اذاً، الشياطين هي التي اثارت التشنيع والتجديف والاضطهاد، وذلك كي يرغموه على مقت مضطّهديه والمشنّعين عليه، بقصد انتهاك وصية المحبة.

بيد أن الرسول لم يكن يجهل افكارهم، بل بادر الى مباركة المشنّعين، والتألم مع المضطهدين (بكسر الهاء)، وحض المجدفين على ترك الشياطين التي هي السبب الكامن وراء ذلك. وكل هذا كان كي يجعلهم اصدقاء الله. بمثل هذا الجهاد، دافع (الرسول) عن نفسه بإزاء الاعيب الشياطين، فغلب الشر بالخير اقتداء بالمخلص.

وهكذا، فالرسل ابعدوا العالم عن الشياطين، وصالحوه مع الله. وبهزيمتهم وانكسارهم، غلبوا الذين ظنوا انهم سيفوزون (اشارة الى انتصار الرسل على الشياطين).

والآن يا اخي، اذا كنت انت ايضاً تضع هذا الهدف نصب عينيك، فإنك ستقدر ان تحب الذين يبغضونك. بغير هذا، لا يمكنك ابداً ان تحبهم.

١٦- فقال الأخ: في الحقيقة يا ابت ان الامور هي هكذا، ولا يمكنها ان تكون خلاف ذلك. لأجل هذا، فالرب نفسه عندما كان يجدّف عليه ويلطم- احتمل كل ما اصابه من اليهود بما انه يحبهم، ولكونهم فعلوا ذلك عن جهل وغباوة. ولهذا السبب عينه، قال وهو على الصليب: «يا ابت اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يفعلون» (لوقا ٢٣-٣٤). على الصليب غلب الرب ابليس وخداعه واعوانه. وكما قلت، لقد جاهد السيد ضد الشياطين حتى الموت، حفاظاً على وصية المحبة، فمنحنا النصرة عليها، وحل سلطان الموت ومنح العالم قيامته كمصدر للحياة.

فقال الأخ:

صلّ من اجلي يا ابت كي تصير لي القوة لأعرف مقاصد الرب ومقاصد رسله على نحو تام، وذلك لكي اكون صبوراً ومتعقلاً في ساعة التجارب، فلا اجهل افكار ابليس، وشياطينه.

١٧- اجاب الشيخ وقال:

اذا كنت تتأمل على الدوام وبانتباه، ما ذكر سابقاً، يمكنك ان تدرك كل مخطّطات ابليس. واذا ادركت هذا، يمكنك ان تفهم انه كما تجرب انت، هكذا يجرّب اخوك ايضاً. لذا عليك ان تسامح من يجرّب.اما من يريد ان يجربك ليقودك الى كراهية اخيك، والذي بدوره يجرّب، فقاومه، ولا تذعن لخداعه وألاعيبه. هذا ما يرمي اليه اخو الرب يعقوب عندما يقول: «قاوموا ابليس، فيهرب منكم. اقتربوا من الله، فيقترب منكم» (يعقوب ٤:٧).

فاذا كنت تتأمل على الدوام وبيقظة- كما ذكر آنفاً-

يمكنك ان تدرك مقاصد الرب ورسله، وهي، ان تحب الناس وتشفق عليهم عندما يزلّون. ومن الجهة الثانية، ان تحارب الشياطين الخبثاء دوماً، بهذه المحبة. اما اذا كنا ناعمين ولا مبالين ومتوانين، وكنا نربك عقولنا بالشهوات الجسدية، فحربنا ليست ضد الشياطين[1]، بل ضد انفسنا وضد اخوتنا. وهكذا نكون خداماً للشياطين عندما نقاتل اخوتنا خدمة لها ومن اجلها.

١٨- ثم قال الأخ:

أهكذا اذاً يا ابت، انه بسبب كسلي الدائم، تتّخذ الشياطين سانحة ضدي؟! الاّ اني ارجوك يا ابت، ان تقول لي كيف اقتني اليقظة؟

اجابه الشيخ وقال:

ان طرح كل الاهتمامات الدنيوية، مقروناً بدرس الكتب المقدسة، من شأنه ان يقود النفس الى مخافة الله. ومخافة الله، من شأنها ان تقود النفس الى اليقظة. والنفس متى بلغت هذه الدرجة، يمكنها ان تبدأ بمعاينة الشياطين التي تحاربها بالأفكار، فتكتسب المناعة ضدها على نحو ما قال النبي داوود:

«اهلك يا رب، وفرّق السنتهم لأني رأيت ظلماً وخصاماً في المدينة». (مزمور ٥٥:٩).

وفي هذا الصدد، تكلم بطرس الهامة وقال: «اصحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمساً من

١- مصارعتنا يشير مكسيموس هنا الى أف٦:١٢ التي تميّز بين الصراع ضد الجسد والصراع ضد الارواح الشريرة. الاوّل صراع المبتدئين. أما الكاملون فيحاربون الشيطان وجها لوجه كما حاربهم بولس وانطونيوس وسائر مجاهدي الله (المعرّب).

يبتلعه. فقاوموه راسخين في الايمان، وعالمين ان نفس هذه الآلام تجري على اخوتكم الذين في العالم. (٢ بطرس ٥:٨-٩).

والرب يقول ايضاً: «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في التجارب» (متى ٢٦:٤١).

ويقول سفر الجامعة: «ان صعدت عليك روح المتسلّط، فلا تبرح مكانك، لأن الهدوء يسكّن خطايا عظيمة. يوجد شر رأيته تحت الشمس كسهو صادر عن المتسلّط. الجهالة جُعلت في معالي كثيرة، والاغنياء يجلسون في السافل...» (الجامعة ١٠:٤-١٠)

مربض الذهن هي الفضيلة والمعرفة ومخافة الله. والرسول الحبيب الذي جاهد بيقظة روحية عظيمة وشجاعة نادرة، يقول:

«لأننا وان كنا نسلك في الجسد، لسنا حسب الجسد نحارب. اذ اسلحة محاربتنا ليست جسدية، بل قادرة بالله ان تهدم حصون.

هادمين ظنوناً وكل علو يرتفع ضد معرفة الله، ومستأسرين كل فكر الى طاعة المسيح، ومستعدين للانتقام من كل عصيان متى كملت طاعتكم» (٢ كور ١٠:٣-٨)

فإن كنت انت ايضاً تقتدي بالقديسين، وتنشغل بالله في اتعاب كثيرة، فإنك ستقتني الحصانة واليقظة.

١٩- فقال الأخ:

وماذا ينبغي على المرء ان يفعل، اذا اراد الانشغال بالله على

الدوام؟

اجابه الشيخ:

يستحيل على الذهن ان ينشغل بالله، على نحو كامل، بدون اقتناء الفضائل الثلاث التالية:

١- المحبة

٢- ضبط النفس

٣- والصلاة

اما المحبة، فمن شأنها ان تروّض الغضب. وأما ضبط النفس فمن شأنه ان يخنق الشهوة ويجففها. الا ان الصلاة، فمن شأنها ان تعتق الذهن من الافكار، وتعرّيه في حضرة الله. في هذه الفضائل الثلاث تكمن كل الفضائل، وبدونها، يستحيل على الذهن ان ينشغل بالله.

٢٠- فقال الأخ:

ارجوك يا ابت، ان تعلّمني كيف تستطيع المحبة ان تروّض الغضب؟

اجابه الشيخ قائلاً:

بما أن المحبة اشفاق واحسان نحو القريب، مع طول اناة، وبما أنها تحتمل كل ما يصدر عن القريب، كما قلنا مراراً، فهي (المحبة) تستطيع بفعل كل هذه، ان تروّض الغضب في من يمتلكها.

فقال الأخ:

مغبوط من يمتلك المحبة، لأن اعمالها ليست قليلة الشأن.

اما انا فبعيد عنها. لذا ارجوك يا ابت ان تقول لي ما هو طول الاناة.

٢١- اجابه الشيخ وقال:

ان طول الأناة هو ان يبدي المرء صبراً على العداوة، فيحتمل الشرور (المكاره)، ويبقى صامداً حتى نهاية التجربة، وان يكظم غضبه فلا يتكلم بطيش، ولا يشك، ولا يفكر في امر يبعده عن مخافة الله، كما يقول الكتاب: «الحكمة تسكب المعرفة وعلم الفطنة، وتعلّي مجد الذين يمتلكونها. بدء الحكمة مخافة الله، وفروعها طول الايام. في ذخائر الحكمة التعقل والعبادة عن معرفة، اما عند الخطاة، فالحكمة رجس» (ابن سيراخ ١:٢٣-٢٦)

٢٢- هذه هي علامات طول الاناة. يضاف اليها ان يقول المرء لنفسه انه هو سبب التجربة. وهذا بدوره من علامات طول الاناة. وربما هكذا تكون الامور، لأن كثيراً من الامور التي تصادفنا هي إما لتأديبنا، وإما لمحو خطايا الماضي، وإما لإصلاح لامبالاة حاضرة، وإما للحيلولة دون خطايا مستقبلية.

ومن يفكر ان التجربة التي حلت به، كانت لواحدة من هذه الامور (المذكورة)، لا بد ان يقبل الجراح، فيشعر بخطيئته ولا يتّهم ذاك الذي عن طريقه جاءته التجربة. فهو بسبب هذا

وذاك، كان ينبغي ان يشرب كأس الاحكام الالهية، وهو ينظر الى الله ويشكره لكونه سمح بالتجربة، فيلوم نفسه ويقبل، بحسن نية، القصاص التأديبي، كحال داوود كما هو في التالي: «فقال الملك ما لي ولكم يا بني صروية، دعوه يلعن لأن الرب قال له العنْ داوود. فمن يقول لماذا تفعل هكذا» (٢ ملوك ١٦:١٠). وايضاً: «ثم قال داوود لآبيشاي ولجميع عبيده هوذا ابني الذي خرج من صلبي يطلب نفسي فما ترون الآن ببنيامين؟ دعوه يلعن لأن الرب قال له: لعل الرب ينظر الى مذلّتي ويجزيني خيراً عن لعن هذا لي اليوم» (٢ ملوك ١٦:١١-١٣).

وايضاً كحال ايوب مع زوجته: «فقال لها انما كلامك كلام احدى السفيهات. أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه الشر. وفي هذا كله لم يخطأ ايوب بشفتيه (ايوب ٢:١٠-١١).

بيد ان الجاهل، كثيراً ما يطلب اشفاق الله له على الدوام، لكن عندما يأتيه هذا الاشفاق، لا يقبله، لكونه لم يأت على نحو ما اراد. لذا فهو لا يكترث، انما يسوده القلق والاضطراب. وكثيراً ما يخاصم الناس بعناد، وطوراً يجدف على الله. بهذه الطريقة يظهر الجاهل نكران الجميل، فلا يجد التعزية.

٢٣- فقال الأخ:

انت تقول الحق يا ابت، الا اني اسألك ان تخبرني كيف يجفّف ضبط النفس الشهوة؟

اجابه الشيخ قائلاً:

من شأن ضبط النفس ان يُبعد الانسان عمّا ليس ضرورياً ،

اي عن كل ما يسبّب الملذات ويحرّض عليها. ضبط النفس يجعل المرء يحجم عمّا ليس ضرورياً للحياة، فلا يسعى وراء المتعة، بل وراء الفائدة.

ضبط النفس يقيس الطعام والشراب ولا يسمح للجسد ان يفرط في المسرّات، بل يحفظ حياة الجسد ويصونها ويحميها من الاضطراب الناجم عن المخالطة الجسدية. وعلى عكس ذلك، فالشهوة والافراط في الطعام والشراب، يمكنها ان تسخّن البطن، فتضرم نار الشهوة والرغبات المعيبة، فتقود الحيواني (الذي فينا)، الى المخالطة الجسدية غير اللائقة.

من شأن العيون الممتلئة بالخزي، والايدي غير الطاهرة، واللسان الذي لا ينطق بالجمال، ان يجعل الأذن غير قابلة للاقوال النافعة. وهذا كله يؤدي بالذهن الى احتقار الله، وبالنفس، الى الزنى بالفكر. وهكذا ينقاد الجسد الى ممارسة الدنيء وغير اللائق.

٢٤- فقال له الأخ:

في الحقيقة يا ابت، ان الامور هي هكذا، الاّ اني ارجوك ان تخبرني عن الصلاة، وكيف انها تقصي الافكار، مبعدة الذهن عنها؟

اجابه الشيخ قائلاً:

من شأن الافكار ان تتجه الى امور العالم. وبين امور العالم، ثمة ما هو حسي، وما هو عقلي. والذهن الذي ينشغل بامور العالم، يطوف، حاملاً بعض افكاره (اي افكار العالم وامور العالم). اما نعمة الصلاة، فمن شأنها ان تجتذب الذهنَ الى الله.

والذهن الذي يلتصق بالله، يبتعد عن كل الافكار. وعندما يناجي الله، يتعرى من الافكار كلها، ويصبح مشابهاً لله (God-Like). وحين يكون الذهن على هذا النحو، فإنه يطلب من الله ما هو موافق ولائق. وهكذا، لا يخفق البتة في طلبه وصلاته. لهذا السبب، يطالبنا الرسول ان تكون الصلاة بلا انقطاع (اسا ٥:١٧).

وعندما ينجذب الذهن الى الله باستمرار، فإنه شيئاً فشيئاً يبتعد عن ملازمته الامور المادية.

٢٥- فقال له الأخ:

وكيف يستطيع الذهن ان يصلي بلا انقطاع يا ابت؟ كيف يصلي بلا انقطاع، طالما اننا في الترتيل والقراءات واللقاءات، نشتّته بالمناظر والافكار؟

اجابه الشيخ، قائلاً:

الكتب المقدسة لا تطلب غير المستطاع.والرسول نفسه أنشد المزامير، وطالع الكتاب، ورعى وصلى بدون انقطاع.

غاية الصلاة بلا انقطاع هي ان تجعل الذهن متخشّعاً ومشتاقاً للمثول في حضرة الله، وان يكون رجاؤه ملتصقاً بالله، وواثقاً به في كل شيء. و الرسول، لما عرف هذه الحالة، قال:

«من سيفصلنا عن محبة المسيح، أشدة ام ضيق ام اضطهاد ام جوع ام عري ام خطر ام سيف؟» (رومية ٨:٣٥)

وايضاً:

«فإني متيقّن انه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رؤساء

ولا قوات ولا امور حاضرة ولا مستقبلة. لا علو ولا عمق ولا خليقة اخرى تقدر ان تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رومية ٨:٣٨-٣٩).

وايضاً:

«مكتئبين في كل شيء لكن غير متضايقين. متحيّرين، لكن غير يائسين. مضطهدين لكن غير متروكين. مطروحين، لكن غير هالكين. حاملين في الجسد كل حين اماتة الرب يسوع، لكي تظهر حياة يسوع ايضاً في جسدنا. لأننا نحن الاحياء نسلّم دائماً للموت من اجل يسوع، لكي تظهر حياة يسوع ايضاً في جسدنا المائت» (٢ كور ٤:٨-١١).

٢٦- بهذه الروحية، وهذا الاستعداد[١]، كان الرسول يصلّي بلا انقطاع في كل اعماله، كما قيل. وقد ظلّ رغم كل ما حلّ به، متمسّكاً بالرجاء بالله. ولهذا، اغتبط كل القديسين على الدوام في احزانهم، وذلك كي يأتوا الى امتلاك المحبة الالهية. ولهذا السبب عينه، قال الرسول: «فقال لي تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل. فبكل سرور افتخر بالحري في ضعفاتي لكي تحل عليّ قوة المسيح» (٢ كور ١٢:٩).

لكن، الويل لنا نحن الاشقياء، لأننا هجرنا طريق الآباء القديسين. لآجل هذا، تعرّينا من كل عمل روحي.

(١) Disposition

٢٧- فقال الاخ:

ولماذا يا ابت ليس في داخلي انسحاق وندامة؟

اجابه الشيخ قائلاً:

لأن مخافة الله ليست نصب اعيننا. لقد اصبحنا بؤرة لكل الشرور. ولهذا فقد ازدرينا قصاص الله الرهيب، معتبرينه امراً بسيطاً. من منا لا تجرحه الندامة لدى سماعه موسى يتكلم عن الخطأة ويقول:

«لأن النار تشب بغضبي فتتوقّد الى الهاوية السفلى وتأكل الارض ونباتها، وتحرق اساس الجبال. احشد عليهم شروري، وسهامي افرغها فيهم» (تثنية ٣٢:٢٢-٢٣).

وايضاً:

«اذا صقلت بارق سيفي، واخذت بالقضاء يدي، رددت الانتقام على مضايقي وكافأت مبغضيَّ» (تثنية ٣٢: ٤١). ولدى سماع اشعيا وهو يصرخ ويقول: «قد فزع الخطأة في صهيون والرعدة أخذت الكفرة. من منا يسكن في النار الآكلة، ومن منا يسكن في المواقد الابدية؟ ...» (اشعيا ٣٣: ١٤).

وايضاً:

«لأنكم تفرحون وتمرحون يا منتهبي ميراثي، وتطفرون كعجلة تدرس، وتصهلون كالجياد» (ارميا ٥٠: ١١).

وايضاً:

«ويخرجون ويرون جثث الناس الذين عصوني، لأن دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأ ويكونون رذالة لكل بشر» (اشعيا ٦٦: ٢٤).

وايضاً:

«ادّوا المجد للرب الهكم قبل ان يأتي الظلام وقبل ان تعثر اقدامكم على الجبال المدلهمة. حينئذ تترقبون النور فيحوله الى ظل موت ويجعله ديجوراً» (ارميا ١٣: ١٦).

وايضاً:

«اسمعوا هذا ايها الحمقى الشعب الفاقدو اللب الذين لهم عيون ولا يبصرون ولهم آذان ولا يسمعون» (ارميا ٥: ٢١-٢٢).

وايضاً:

«إن خبثك يؤدبك وارتدادك يبكتك. فاعلمي وانظري ان تركك الرب الهك شر ومر، وان مهابتي ليست فيك يقول السيد رب الجنود. انك منذ الدهر كسرتِ نيرك وقطعت ربطك وقلت لا اتعبد. فإنك على كل اكمة عالية وتحت كل شجرة خضراء اضجعتِ زانية» (ارميا ٢: ١٩-٢١).

وايضاً:

«اني لم اجلس في جماعة اللاعبين ممازحاً، بل من اجل يدك جلست منفرداً لأنك ملأتني غضباً» (ارميا ١٥: ١٧).

ومن لا يرتعش وهو يسمع حزقيال يقول:

«هكذا قال السيد: هذه اورشليم قد جعلتها في وسط الامم ومن حولها الاراضي. فعصت احكامي بنفاقها اكثر من الامم ورسومي اكثر من الاراضي التي من حولها لأنهم نبذوا احكامي ولم يسلكوا في رسومي. لذلك هكذا قال السيد الرب: بما انكم تذمّرتم اكثر من الأمم التي من حولكم، ولم

تسلكوا في رسومي ولم تعملوا بحسب احكامي ولا عملتم بحسب احكام الامم التي من حولكم. لذلك هكذا قال السيد الرب: ها أنذا عليك وسأجري احكاماً في وسطك امام عيون الامم. وافعل بك ما لم افعل، وما لا اعود افعل مثله لأجل جميع ارجاسك» (حزقيال ٥: ٥-٩).

ومن لا تجرحه الندامة لدى سماعه دانيال يصف يوم الندامة الرهيب:

«وبينما كنت ارى اذ نصبت عروش فجلس القديم الايام وكان لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار وعجلاته ناراً مضطرمة. ومن امامه يجري ويخرج نار من نار وتخدمه الوف الوف، وتقف بين يديه ربوات ربوات. فجلس اهل القضاء وفتحت الاسفار». (دانيال ٧: ٩-١١). ومن الواضح ان اعمال كل امرئ قد انكشفت.

وايضاً:

«ورأيت في رؤى الليل، فإذا بمثل ابن البشر آتياً على سحاب السماء فبلغ الى القديم الايام وقرّب الى امامه. وأوتي سلطاناً ومجداً وملكاً، فجميع الشعوب والامم والالسنة يعبدونه، وسلطانه سلطان ابدي لا يزول. وملكه لا ينقرض. فتروّع روحي انا دانيال في وسط جسمي واقلقتني رؤى رأسي. فاقتربتُ الى احد الواقفين وسألته عن حقيقة ذلك كله فأخبرني واعلمني بتعبير الكلام وهو ان هذه الحيوانات الاربعة العظيمة هي اربعة ملوك يقومون من الارض» (دانيال ٧: ١٣-٧٩).

٢٨- ومن لا يجزع لدى سماعه داوود يقول:

«تكلم الله مرة وثانية، والذي سمعته ان العزة لله. ولك ايها السيد الرحمة وانت تجزي الانسان بحسب عمله» (مزمور ٦١: ١٢-١٣).

وايضاً يقول الجامعة:

«فلنسمع ختام الكلام كله. إتق الله واحفظ وصاياه فإن هذا هو الانسان كله. لأن الله سيحضر كل عمل ليدين على كل خفي خيراً كان او شراً» (جامعة ١٢: ١٣-١٤).

٢٩- ومن لا ينوح لدى سماعه اموراً مماثلة من الرسول القائل:

«لأنه لابد اننا جميعاً نظهر امام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع، خيراً ام شراً» (٢ كور ٥: ١٠).

وايضاً:

«واما انت، فلماذا تدين اخاك؟ او انت ايضاً لماذا تزدري أخاك؟ لأننا جميعاً سوف نقف امام كرسي المسيح. لأنه مكتوب انا حي يقول الرب انه لي ستجثو كل ركبة وكل لسان سيمجد الله. اذا كل واحد منا سيعطي عن نفسه حساباً لله» (رومية ١٤: ١٠-١٢) فيرتجف.

ومن ذا الذي لا يبكي شكوكنا وعمى نفوسنا! فنحن رغم سماعنا كل هذه، لا نتوب، ولا نبكي بمرارة من جراء تقاعسنا وتوانينا. لقد سبق ارميا ان رأى هذا، فقال:

«اسمعوا كلمة الرب ايها الأمم، وأخبروا في الجزائر البعيدة

وقولوا: الذي فرّق اسرائيل يجمعه ويحفظه كما يحفظ الراعي قطيعه» (ارميا ٣١: ١٠).

لو اننا كنا نراعي خلاص نفوسنا، لكان لزاماً علينا ان نرتجف لدى سماع كلام الرب، ولكنّا تلهفنا لحفظ وصاياه التي بها نخلص حقيقة.

ها قد سمعنا الرب يقول: «ادخلوا الطريق الضيق الذي يقود الى الحياة...»(متى ٧: ١٣-١٤)، الاّ اننا آثرنا الدرب الواسع الذي يؤدي الى الهلاك. لذا فإننا سنسمعه عندما يأتي من السماء ليدين الاحياء والاموات: اغربوا عني يا ملاعين الى النار الابدية التي اعدت لابليس وملائكته» (متى ٢٥: ٤١).

٣٠- لقد سمعنا كل هذا، ليس فقط لأننا اخطأنا، انما لأننا لم نبال بالصالحات، ولم نظهر المحبة لقريبنا. ولكن ان كنا عملنا الشرور، فكيف سنحتمل ذلك اليوم ان كنا من المتقاعسين، لا بل نرتكب الشرور؟

الاّ ان «لا تزن»، «لا تسرق»، «لا تقتل» (متى: ٢٧)، قد قيلت للقدماء مع موسى[1]. ولكن لا بد ان نعرف ان حفظ هذه الوصايا، من اجل كمال المسيحي، لا يكفي في حد ذاته حسب قول الرب:

«الحق اقول لكم إن لم يزد بركم على الكتبة و الفريسيين، لا تدخلون ملكوت السموات» (تثنية ٣٢: ١٥).

لذا، كان عند كل سانحة يؤكد على قداسة النفس. وبفعل

(١) ايام موسى

هذه القداسة، يتقدس الجسد. وقد أكدّ على محبة الناس. وبفعل هذه المحبة، يمكننا ان نقتني المحبة له. لقد سبق ان اعطانا ذاته مثالاً حتى الموت. كذلك فعل تلاميذه، كما ذكر مراراً.

٣١- اذا اي جواب سنعطي في ذلك اليوم، نحن الذين لنا مثل هذا المثال، لكننا متكاسلون؟

لقد بكانا النبي ارميا نحن الذين تسلّمنا نعمة عظيمة كهذه، لكننا في السلوك لامبالون، لا بل بالحري، ممتلئون كل شر، فقال:

«من لرأسي بمياه، ولعيني ينبوع دموع، فأبكى نهاراً وليلاً على قتلى بنت شعبي؟!» (ارميا ٩: ١).

كذلك يقول موسى عندما يتكلم عنا:

«فسمن يشورون ومرح، قد سمنتَ وحررت واكتسيت شحماً فرفض الاله الذي صنعه واستهان بصخرة خلاصه» (تثنية ٣٢: ١٥).

كذلك فإن ميخا يبكي ويقول:

«قد هلك الصّفيّ من الارض، وليس في البشر مستقيم. جميعهم يكمنون للدماء، وكل منهم يصطاد اخاه بشرك» (ميخا ٧: ٢).

كذلك يقول كاتب المزامير، وكأني به يتكلم عنا:

«خلصني يا رب فأن البار قد فني ...» (مزمور ١١: ٢). وغير ذلك.

٣٢- ثم ان الرسول بكانا وكأنه يتنبأ، فقال:

«ما من احد بار. ما من احد يدرك. ما من احد يبتغي وجه الله. حناجرهم قبور مفتوحة. وبألسنتهم يمكرون. سم الاصلال على شفاههم. افواههم ملؤها اللعنة والمرارة. اقدامهم تخف الى سفك الدماء. وعلى طرقهم دمار وشقاء. سبيل السلام لا يعرفون. وليست مخافة الله نصب عيونهم» (رومية ٣: ١٠-١٨).

والمعنى ذاته يردده داوود، فيقول:

«ضلوا كلهم وتدنسوا. ليس من يعمل صلاحاً. كلا ولا واحد. حنجرتهم قبر مفتوح...» (مزمور ١٣: ٣).

وايضاً، وبالنظر الى الامور المستقبلية، فإن الرسول يكتب الى تيموثاوس عن الحياة الحاضرة، فيقول:

«واعلم انه ستأتي في الايام الاخيرة ازمنة عسيرة يكون فيها الناس محبين لانفسهم وللمال،صلفين متكبرين شتامين عاقيّن، ناكري الجميل، فجاراً، لا ود لهم ولا عهد، مغتابين مفرطين، شرسين، اعداء الصلاح، خائنين، وقحين، اعمتهم الكبرياء، مؤثرين اللذة على الله، ويظهرون التقوى لكنهم ينكرون قوتها. فأعرض عن اولئك الناس. ومنهم الذين يتسلّلون الى البيوت ويفتنّون نسيّات مثقلات بالخطايا، منقادات الى شهوات شتى، يتعلمن دائماً ولا يستطعن معرفة الحق ابداً» (٢ يتمو ٣: ١-٩). وما يليها. لذا فالويل لنا لأننا بلغنا ذروة الشر.

والآن قل لي، من منا لم يشارك في الامور الآنفة الذكر؟ ألم تتحقق النبوءة فينا؟ ألسنا كلنا شرهين؟ ألسناكلنا محبين للذة؟

ألسنا كلنا نؤخذ بأمور العالم ونحبها؟ ألسنا كلنا متوحشين؟ الا نغذّي جميعنا الغضب؟ ألسنا كلنا مملوئين مكراً وخبثاً؟ ألسنا كلنا خونة بحق الفضائل؟ ألسنا كلنا شتامين، ألسنا كلنا محبين للهزء والسخرية؟ ألسنا كلنا متهورين وطائشين؟ الا نمقت اخوتنا؟ ألسنا كلنا منتفخين؟ ألسنا كلنا متغطرسين؟ ألسنا كلنا متكبرين؟ ألسنا كلنا محبين للمجد الباطل؟ ألسنا كلنا مرائين؟ ألسنا كلنا غشاشين؟ الا نحسد بعضنا بعضاً؟ ألسنا كلنا مشاكسين؟ ألسنا كلنا فاترين؟ ألسنا كلنا سريعي العطب؟ ألسنا كلنا كسالى؟ الا نهمل جميعنا وصايا المخلص؟ ألسنا كلنا ممتلئين شروراً؟

لقد اصبحنا هياكل للاوثان بدلاً من أن نكون هيكلاً لله.

اصبحنا مسكناً للارواح الشريرة بدلاً من ان نكون مسكناً للروح القدس. الا ندعو الله من افواهنا فقط (mechanically)؟ لقد اصبحنا اولاد جهنم، بدلاً من أن نكون اولاد الله؟ ألم نصبح اسوأ من اليهود نحن الذين نحمل الآن اسم يسوع العظيم؟

لكن لا يغتاظن احد لدى سماع الحقيقة. لأن العصاة والمتعدّي الشريعة قالوا: «نحن لم نولد للزنى. ولنا اب واحد هو الله. فقال لهم يسوع: لو كان الله اباكم لأحببتموني لأني من الله خرجت واتيت. وما اتيت من نفسي، بل هو الذي ارسلني...» (يوحنا ٨: ٤٠-٤٣). بيد انهم سمعوا المخلص يقول لهم: «انتم اولاد ابيكم ابليس وتريدون اتمام شهوات ابيكم. كان منذ البدء قتالاً للناس. ولم يثبت على الحق. انه ليس فيه شيء من الحق...» (يوحنا ٨: ٤٣-٤٦).

٣٣- كيف يمكن بعد ذلك، بالنسبة الينا نحن الذين نتعدى الوصايا، ان لا نسمع منه ما هو مماثل لذلك؟

في الحقيقة قال الرسول في الذين ينقادون بالروح، انهم اولاد الله: «ان الذين ينقادون الى روح الله يكونون حقاً ابناء الله. لم تتلقوا روحاً يستعبدكم، ويردّكم الى الخوف، بل روحاً يجعلكم ابناء، وبه ننادي: يا ابتاه: (رومية ٨: ١٤-١٦)، (غلاطية ٤: ٦)، (لوقا ١١: ٢).

كيف اذاً، نحن الذين ننقاد بواسطة الموت، ندعى ابناء الله؟ «الجسد ينزع الى الموت، واما الروح فينزع الى الحياة والسلام» (رومية ٨: ٦).

الذين ينقادون بالروح، فمعروفون من ثمار الروح (التي فيهم). لذا دعونا نعرف ما هي ثمار الروح: «لأن ثمر الروح هو المحبة، الفرح، السلام، طول الاناة، الصلاح، الايمان، الوداعة والامساك (غلاطية ٥: ٢٢). ترى هل نحن نمتلك ثمار الروح في داخلنا؟ أليس فينا ما هو ضدها؟ كيف اذاً ندعى اولاد الله لا اولاد ابليس؟ إن من يولد من الترابي، هو كالترابي الذي ولده. وهذا ما يوضحه الرب بقوله:

«لأن من يولد من الروح هو روح...» (يوحنا ٣: ٦).

بيد اننا اصبحنا جسداً يلتهب بالشهوات المعاكسة للروح. لذا فنحن نسمعه يقول بحق:«ان روحي لا يبقى في هؤلاء...» (تكوين ٦: ٣). اذا كيف ندعى مسيحيين نحن الذين ليس فينا من المسيح شيء؟

٣٤- ورب امرئ يقول: عندي الايمان، والايمان به (بالرب)، كاف لخلاصي. لمثل هذا الانسان، يقول الرسول يعقوب: «والشياطين ايضاً تؤمن وتقشعر» (يعقوب ٢: ١٩).

«...الايمان بدون اعمال مائت» (يعقوب ٢: ١٧). كذلك هو حال الاعمال بدون ايمان. ولكن كيف نؤمن به؟ هل نصدقه لجهة الامور العتيدة ولا نفعل الشيء نفسه لجهة الأمور الحاضرة؟ ألهذا السبب نحن غارقون في الامور المادية، ونحيا للجسد، ونقاتل ضد الروح؟

بيد ان الذين آمنوا بالمسيح حقيقة، ومن خلال الوصايا، وجعلوه يسكن فيهم، فقد قالوا:

«ما انا احيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيّ. واذا كنت الآن احيا حياة بشرية، فإني احياها في الايمان بابن الله الذي احبني وجاء بنفسه من اجلي...» (غلاطية٢: ٢٠-٢١).

لهذا السبب، لمّا كانوا يتألمون من أجله، من اجل خلاص الكل وكأمناء في التشبه به، وكأصليين في حفظ وصاياه، كانوا يقولون:

«نشتم فنبارك، نضطهد فنحتمل، يشنعّ علينا فنتضرع. صرنا اقذار العالم ونفاية الناس اجمعين الى اليوم.» (١ كور ٤: ١٢).لقد سمعوه في الحقيقة يقول:

«احبوا اعداءكم، وأحسنوا لمن يسيئون اليكم. باركوا لاعنيكم، وصلوا...» (متى ٤: ٤٤). وغير ذلك.

بأقوالهم وافعالهم، يظهر المسيح الفاعل فيهم. اما نحن، الذين نفعل ما هو مخالف لوصاياه كلها، فإننا ممتلئون من كل نجاسة.

ولهذا السبب، فبدل ان نكون هيكلاً لله، اصبحنا مكاناً للمتاجرات (متى ٢١: ١٣)، (يوحنا ٢: ١٦).

وبدل ان نكون بيت صلاة، اصبحنا مغارة للصوص. وبدل ان نكون امة مقدسة، اصبحنا امة أثيمة (١ بطرس ٢: ٩).

وبدل ان نكون حبة مقدسة اصبحنا حبة شريرة، وفاسدة، وابناء للمعاصي (اشعيا ١: ٤).

لقد نسينا وصايا الرب، وشرعنا نخدم الارواح الشريرة بأهوائنا الدنسة، فأغظنا قدوس اسرائيل[1].

٣٥- لهذا يرثي اشعيا العظيم لحالنا، ويصرخ، لانه يريد ان يعيننا لاننا ساقطون، فيقول: «على ماذا تُضربون بعد؟ تَزدادون زيغاناً. كل الرأس مريض وكل القلب سقيم. من اسفل القدم الى الرأس ليس فيه صحة، بل جرح واحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تليّن بالزيت...» (اشعيا ١: ٥-٧). ثم بعد قليل يعود فيقول: «فبقيت ابنة صهيون كمظلة في كرم، كخيمة في مقثأة، وكمدينة محاصرة» (اشعيا ١: ٨).

كذلك يشير الرسول الى تعاستنا، فيقول: «وكما لم يستحسنوا ان يبقوا الله في معرفتهم، اسلمهم الله الى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق. مملوئين من كل اثم وزنى وشر وطمع وخبث. مشحونين حسداً وقتلاً وخصاماً ومكراً وسوءاً. نمامين مفترين مبغضين لله، ثالبين متعظمين مدّعين مبتدعين شروراً، غير طائعين للوالدين. بلا فهم ولا عهد ولا حنو ولا رضى ولا رحمة. الذين اذ عرفوا حكم الله ان الذين يعملون

(١) (متى ٢١: ١٣) (ويوحنا ٢: ١٦)

مثل هذه يستوجبون الموت، لا يفعلونها فقط، بل ايضاً يُسرّون بالذين يعملون» (رومية١ : ٢٨-٣٢). لهذا اسلمهم الله الى شهوات قلوبهم. ترى ما هي نتيجة كل هذا؟ يقول الرسول: «لأن غضب الله معلن من السماء على جميع فجور الناس واثمهم، الذين يحجزون الحق بالاثم اذ معرفة الله ظاهرة فيهم لأن الله اظهرها لهم.... لأنهم لما عرفوا الله، لم يمجدوه او يشكروه كإله، بل حمقوا في افكارهم، واظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون انهم حكماء، صاروا جهلاء. وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الانسان الذي يفنى والطيور والدواب والزحافات. لذلك اسلمهم الله في شهوات قلوبهم الى النجاسة لإهانة اجسادهم بين ذواتهم. الذين استبدلوا حق الله بالكذب واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق الذي هو مبارك الى الابد آمين» (رومية ١: ١٨-٢٥). وكل ما يقال تباعاً.

٣٦- كذلك، فقد كشف الرب تعاسة نفوسنا بقوله: «يا اورشليم يا اورشليم» يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها. كم مرة اردت ان اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خراباً. لأنني اقول لكم انكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب» (متى ٢٣: ٣٧-٣٩). كذلك فإن اشعيا النبي لما رآنا نصبح رهباناً لنخدم الجسديات فقط، ونزدري الروحيات وننتفخ، قال: «اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم. اصغوا الى شريعة الهنا يا شعب عمورة. لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب؟ اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات، وبدم عجول وخرفان ما أُسّر حينما تأتون لتظهروا امامي. من طلب هذا من ايديكم ان

تدوسوا دوري لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهة لي. رأس الشهر والسبت ونداء المحفل. لست اطيق الاثم والاعتكاف. رؤوس شهوركم واعيادكم بغضتها نفسي. صارت عليّ مثقلاً، مللت حملها. فحين تبسطون ايديكم استر عيني عنكم. وان كثرتم الصلاة لا اسمع. ايديكم ملآنة دماً...» (اشعيا ١: ١٠-١٥).

ولكن لماذا يقول اشعيا: «لأن ايديكم ملآنة دماً»؟ «لأن من يبغض اخاه، فهو قاتل نفس. وانتم تعلمون ان كل قاتل نفس ليس له حياة ابدية ثابتة فيه» (١يوحنا ٣: ١٥). لذا فإن كل عمل لا يقترن بالمحبة، هو غريب عن الله.

٣٧- لهذا السبب وبّخنا اشعيا على رياءنا منذ القديم، فقال: «لأن هذا الشعب قد اقترب إلي بفمه وأكرمني بشفتيه، واما قلبه فبعيد عني. وصارت مخافتهم مني وصية الناس معلمة» (اشعيا ٢٩: ١٣) . وايضاً يقول الانجيلي متى: «يقترب الي هذا الشعب بفمه ويكرمني بشفتيه واما قلبه فبعيد عني» (متى ١٥: ٨). وغير ذلك. كذلك فإن ما قاله الرب عن الفريسيين البؤساء، ها انا اسمعه يقوله لنا نحن المرائين المعاصرين، الذي استأهلنا نعمة عظيمة، الا اننا نسلك اسوأ من اولئك. أليس صحيحاً اننا نحمل احمالاً ثقيلة واعباء لا تطاق، فنجعلها على كواهل الناس، ولا نحركها نحن باصبعنا» (متى ٢٣: ٤٦)؟ أليس صحيحاً اننا نقوم بما يترتب علينا، فقط، كي يرانا الناس (متى ٦: ٥)؟ أليس صحيحاً اننا نحب اول المتكآت والموائد واول المجالس في المحافل، وان يقول فينا الناس معلمي معلمي» (متى ٢٣: ٦-٨)؟ أليس صحيحاً اننا طرحنا مفتاح المعرفة، واغلقنا

ملكوت السموات في وجوه الناس، فلم ندخل، ولم ندع الآخرين يدخلون» (لوقا ١١: ٥٢)؟ أوليس صحيحاً اننا نطوف البحر لنكسب دخيلاً واحداً» (متى ٢٣: ١٥)؟ ثم متى حصل لنا ذلك، نصنعه ابناً لجهنم» (متى ٢٣: ١٥)؟ أوليس صحيحاً اننا قادة عميان نعفّ عن البعوضة ونبلع الجمل؟ أليس صحيحاً اننا ننقي خارج الكأس والقصعة واما الباطن فمملوء اختطافاً وخبثاً، او بالاحرى، نبدو ضعفاء امام الامساك» (لوقا ١١: ٣٩)؟ أليس صحيحاً اننا نُعشّر النعنع والشبّث والكمون ونترك اثقل الناموس اعني الرحمة والحق والايمان» (متى ٢٣: ٢٣)، (لوقا ١١: ٤٢)؟ أليس صحيحاً اننا نبدو للناس اطهاراً، بينما من داخل نحن مملوؤن رياء واختطافاً ونجاسة» (متى ٢٣: ٢٧-٢٨)؟ أليس صحيحاً اننا نشيّد قبور الشهداء ونزيّن تماثيل الرسل، بينما نحن نشبه الذين قتلوا الرسل» (متى ٢٣: ٢٩-٣٠)؟ من اذاً لا يرثي لحالتنا نحن الذين لنا مثل هذه الممارسات؟ من لا يندب عبوديتنا العظيمة هذه؟ ان اولاد الله كرّموا كآنية ترابية. لقد اسوّد الذهب وتغيّر الابريز الجيد» (مراثي ٤: ١-٢).

لذا، فنحن مسيحيي صهيون، الذين كنا اشد بياضاً من الثلج، قد اصبحنا كالأحباش. الذين كنا اشد بياضاً من الحليب، اصبحنا اكثر سواداً من السواد نفسه. لقد تكدّر بهاؤنا اكثر من الدخان (الشحوار). نحن الذين كنا نتغذى بالراحة، قد تسربلنا العار. لقد اصبحت شرورنا افظع من شرور سدوم. نحن ابناء النور والنهار، ها قد اصبحنا اولاد الليل والعتمة (١ سا ٥: ٥). نحن اولاد الملكوت، ها قد اصبحنا اولاد جهنم. ها ان ابناء العلي، يموتون ويسقطون كأحد الاراخنة» (مزمور ٨١: ٧). لقد سُلمنا الى ايدي اعدائنا الاشرار اعني الشياطين

المتوحشة، والى ملك ظالم تفوق مظالمه مظالم ملوك الارض كلها. وكل ذلك لأننا اخطأنا واثمنا وتعدينا وصايا الرب الهنا داعسين ابن الله وجاعلين دمه دنساً» (عب ١٠: ٢٩).

ولكن لا تخذلنا الى النهاية، بسبب عارنا هذا، من اجل اسمك القدوس يا رب. لا تهمل عهدك، ولا تبعد عنا رحمتك بداعي حنانك، يا ابانا الذي في السموات. ولأجل الام ابنك الوحيد، ولأجل مراحم روحك القدوس، لا تذكر خطايانا السالفة. اعنا يا اله خلاصنا من اجل مجد اسمك ونجنا واغفر خطايانا من اجل اسمك» (مزمور ٧٩: ٨-٩). انت تتذكر يا رب طبيعتنا البشرية التي حملها ابنك الوحيد بداعي حبه العظيم لنا، وجعلها الآن في السموات وذلك كي يؤكد الرجاء في خلاصنا، كي لا- بسبب اليأس- نأتي الى ما هو اسوأ. امنحنا الخلاص بدم ابنك الكريم الذي اهرق من أجل حياة العالم. وبالرسل القديسين والشهداء، الذين من أجل مجد اسمه القدوس اهرقوا دماءهم، وبالانبياء القديسين والاباء والاجداد الذين جاهدوا لارضاء اسمك القدوس.

لا تتوانى عن ابتهالنا يا رب (مزمور ٥٤: ٢). لا تخذلنا الى النهاية، فنحن لم نعتمد على برنا بل على مراحمك (دانيال ٩: ١٨) التي بها تحفظ جنسنا وتخلصه.

اننا نسألك ونضرع الى صلاحك، ان لا يكون السر الذي اتممه ابنك الوحيد، لخلاصنا، بمثابة دينونة او مداينة. لا تبعدنا من امام وجهك (مزمور ٥٠: ١٣). لا ترذل عدم استحقاقنا، بل ارحمنا بحسب عظيم رحمتك، وبكثرة مراحمك اصفح عن زلاتنا، كي نتقدم في مجدك غير ملومين، ونستأهل ان نذوق حماية ابنك الوحيد، فلا نكون بعد الآن عبيداً اشراراً ملومين

بسبب خطايانا.

نعم يا ايها السيد العظيم والقدير، استمع تضرعنا فنحن سواك لا نعرف. واسمك نسمي. لأنك انت الذي يعمل الكل للكل، ومنك نستمد المعونة. «اطلع يا رب، بمحبتك، من السموات وانظر من خدر مجدك القدوس. اين غيرتك القديمة علينا وقوتك ضد اعدائنا؟ اين كثرة رحمتك واشفاقك التي بها اظهرت طول اناتك علينا؟ لأنك ابونا فابراهيم لم يعرفنا، واسرائيل لم يعترف بنا. اما انت يا رب يا ابانا، خلصنا لأن اسمك منذ القديم علينا مع ابنك الوحيد وروحك القدوس.

لماذا يا رب تركتنا نضل فنبعد عن درب وصاياك (اشعيا ٦٣: ١٥-١٧)؟ لا تعاقبنا بغضب احكامك (ارميا ١٠: ٢٤). لماذا قسيت قلوبنا كي لا نخشاك (اشعيا ٦٤: ١-٥)، (نا·حوم ١: ١٥-١٧)؟ هل تخليت عنا الى سلطان الخداع؟ اهد يا رب خدامك من اجل الكنيسة المقدسة، ومن اجل كل قديسيك منذ القديم كي اننا نرث ولو قليلاً من جبلك القدوس. لقد داس خصومنا هيكل قدسك. كنا منذ زمان كالذين لم تحكم عليهم ولم يُدعَ عليهم باسمك» (اشعيا ٦٣: ١٨-١٩).

٣٨- «ليتك تشق السموات وتنزل. من حضرتك تتزلزل الجبال. كما تشعل النار الهشيم وتغلي النار المياه، فليعرف اعداؤك اسمك. لترتعد الامم من حضرتك. حين صنعت مخاوف لم ننتظرها، نزلت. تزلزلت الجبال من حضرتك. ومنذ الازل لم يسمعوا ولم يصغوا. لم تر عين الهاً غيرك يصنع لمن ينتظره. ها انت سخطت اذ اخطأنا» (اشعيا ٦٤: ١-٥)، (ناحوم ١: ٥-٦).

والاصح اننا اخطأنا فأغضبناك: «لقد صرنا كلنا كنجس. لقد ذبلنا كورقة واثامنا كريح تحملنا وليس من يدعو باسمك او ينتبه ليتمسك بك، لانك حجبت وجهك عنا واذبتنا بسبب اثامنا. والآن يا رب انت ابونا. نحن الطين وانت جابلنا، وكلنا عمل يديك. لا تسخط كل السخط يا رب، ولا تذكر الاثم الى الابد.

ها انظر. شعبك كلنا. مدن قدسك صارت برية. صهيون صارت برية، واورشليم موحشة. بيت قدسنا وجمالنا حيث سبحك اباؤنا، قد صار حريق نار. وكل مشتهياتنا صارت خراباً. الأجل هذا تتجلد يا رب؟ أتسكت وتذلنا كل الذل؟» (اشعيا ٦٤: ٦-١٢).

٣٩- هذه كلها، فعلاً، قد حلّت بشعبك القديم على غرار الصورة والمثال، الا انها تحققت الآن: «صرنا عاراً لأعدائنا وجيراننا وسخرية للذين حولنا (مزمور ٧٩: ٤). ولكن اطلع من السماء وخلصنا لأجل اسمك القدوس. اكشف لنا حيل اعدائنا وخلصنا من شرهم. اعتقنا من الاعيبهم لأننا عاجزون عن الرد عليهم. لا تبعد عونك. لأنك انت القوي فتخلصنا من جميع الأعداء.

خلصنا يا رب من مشقات هذا العالم حسب خيريتك وذلك كي نجتاز بحر الحياة بضمير نقي غير مدنسين امام كرسي دينونتك، وهكذا نستأهل ان نذوق الحياة الابدية.

٤٠- بعد ان سمع الاخ كل هذا، ووخزته الندامة العميقة، قال للشيخ والدموع تنحدر على خديه: على ما ارى يا ابت، لم يبق لي رجاء بالخلاص، لأن مآثمي فوق رأسي (مزمور ٣٧: ٥). لذا ارجوك يا ابت ان تقول لي: ماذا ينبغي ان اعمل؟

اجابه الشيخ قائلاً: خلاص الانسان مستحيل- بكل تأكيد- امام الناس. الا ان كل شيء مستطاع لدى الله (متى ١٩: ٢٦). والرب نفسه اكد ذلك فقال: «نتقدم امامه بحمد وبترنيمات نهتف له. لأن الرب اله عظيم، ملك كبير على كل الآلهة. الذي بيده مقاصير الارض، وخزائن الجبال له. الذي له البحر وهو صنعه، ويداه سكبتا اليابسة. هلم نسجد ونركع امام الرب خالقنا...» (مزمور ٩٥: ٢-٦). والآن، لنسمعه يتكلم على لسان اشعيا فيقول: «لأنه هكذا قال السيد الرب قدوس اسرائيل: بالرجوع والسكون تخلصون» (اشعيا ٣٠: ١٥). وايضاً: «ها ان يد الرب لم تقصر عن ان تخلص ولم تثقل اذنه عن ان تسمع، بل اثامكم صارت فاصلة بينكم وبين الهكم، وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع» (اشعيا ٥٩: ١-٢).

ولهذا السبب يقول: «استحموا وصيروا انقياء، وانزعوا الشرور من نفوسكم وذلك كي تكونوا طاهرين امام عيني. كفوا عن شروركم وتعلّموا ان تصنعوا الخير. اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم. حاموا عن الأرملة. هلم نتحاجج يقول الرب. ان كانت خطاياكم كالقرمز، تبيض كالثلج. ان كانت حمراء كالدودي، تصير كالصوف. ان شئتم وسمعتم، تأكلون خيرات الارض. وان ابيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف، لأن فم الرب تكلم (اشعيا ١: ١٦-٢٠). كذلك فإنه يقول

على لسان يوئيل: «ولكن الآن يقول الرب ارجعوا الي بكل قلوبكم وبالصوم والبكاء والنوح مزقوا قلوبكم لا ثيابكم وارجعوا الى الرب الهكم لأنه رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرأفة ويندم على الشر» (يوئيل ٢: ١٢-١٣). كذلك فإنه يقول على لسان حزقيال: «انت يا ابن آدم، كلم بيت اسرائيل وقل: انتم تتكلمون هكذا قائلين: ان معاصينا وخطايانا علينا، وبها نحن فانون فكيف نحيا...» (حزقيال ٣٣: ١٠-١٤).

والكتاب الثالث من سفر الملوك، يروي لنا التالي وذلك كي يظهر كثرة رحمة الله: عندما كان اخاب في كرمة نابوت- التي صارت له بعد ان قتله بالحاح من ايزابيل- سَمِع ايليا يقول له: «كذا قال الرب قتلت وورثت ايضاً. ثم كلمه قائلاً: هكذا يقول الرب في الموضع الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت، تلحس الكلاب دمك انت ايضاً... وتكلم الرب على ايزابيل ايضاً قائلاً: ان الكلاب ستأكل ايزابيل عند مترسة يزرعيل. ومن مات لآخاب في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات له في الصحراء تأكله طير السماء.... فلما سمع اخاب هذا الكلام مزّق ثيابه وجعل على جسده مسحاً وصام وبات في المسح ومشى ناكساً. وتكلم الرب الى ايليا وقال: أرأيت كيف ذل اخاب امامي. فمن اجل انه قد ذل امامي لا اجلب الشر في ايامه ولكن في ايام ابنه اجلب الشر على بيته. (سفر الملوك الثالث ٢١: ١٦-٢٩).

وايضاً يقول داوود: «ابدي لك خطيئتي ولا اكتم اثمي. قلت اعترف للرب بمعاصي وانت غفرت اثم خطيئتي. لهذا يصلي اليك كل صفّي في اوان النوال ان لا يبلغ اليه غمر المياه

الغزيرة...» (مزمور ٣١: ٥-٦).

ويقول الرب في الانجيل: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات...» (متى ٤: ١٧). ولدى سؤال بطرس: «وكم مرة اسامح اخي اذا ظل يخطئ الي؟» اجابه ذاك الذي هو صالح بالطبيعة وصلاحه لا يوصف قائلاً: «لا اقول لك سبع مرات بل سبعين مرة سبع مرات» (متى ٤: ١٤)، (متى ١٨: ٢١). ترى ما الذي يقابل مثل هذا الصلاح؟ ومن هو الجدير بهذه المحبة؟

٤١- اذاً نحن الذين عندنا معرفة مخافة الله وخيريته ومحبته من العهدين معاً القديم والجديد، هلم نرجع اليه من كل قلوبنا. لماذا نضل يا اخوتي؟ ايها الخطأة، فلننق ايدينا، ونطهر قلوبنا طالما اننا ذوي فكرين. لننق قلوبنا ونبكي وننتحب على خطايانا. لنقلع عن رذائلنا ونؤمن بحنان الرب. لنخش وعيده ونحفظ وصاياه. لنحب بعضنا بعضاً من كل القلب. لنقل «اخوتي» حتى للذين يكرهوننا ويبغضوننا وذلك كي يتمجد اسم الرب ويعتلن في بهائه. لنصفح عن بعضنا نحن المجرَّبين لأن عدونا واحد. لنقاوم افكارنا الشريرة طالبين من الله العون. لنطرح عن ذواتنا الارواح الدنسة. لنخضع الجسد للروح مميتينه ومستعبدينه كعبد. لننق ذواتنا من كل دنس بشرةٍ وروح. لننهض بعضنا بعضاً من اجل المحبة والاعمال الحسنة.

لا يحسدن الواحد اخاه، فيؤخذ بالحسد، ونصبح شرسين. لنبدِ المحبة بعضنا لبعض، وبالتواضع فليشف الواحد الآخر. لا نتكلمن بالسوء الواحد ضد الآخر لأننا اعضاء بعضنا بعضاً. (افسس ٤: ٢٦).

لنطرح عنا الكسل والتواني. لنقف بشجاعة ضد ارواح الشر مجاهدين ضدها ولنا معزٍ عند الآب يسوع المسيح العادل (١ يو ٢: ١) الذي هو كفارة عن خطايانا. لنضرع اليه بقلب نقي، ومن كل نفوسنا، وهو يغفر لنا خطايانا، لأن الرب قريب من الذين يطلبونه بحق (مزمور ١٤٥: ١٨). لهذا يقول: «اذبح لله الاعتراف وأوف العلي نذورك وادعني يوم الضيق وانا انجيك فتمجدني» (مزمور ٤٩: ١٤-١٦).

ويقول اشعيا ايضاً: «أليس هذا هو الصوم الذي آثرته: حل القيود قيود النفاق وفك ربط النير واطلاق المضغوطين احراراً، وكسر كل نير. أليس هو ان تكسر للجائع خبزك وان تدخل البائسين المطرودين بيتك واذا رأيت العريان ان تكسوه وان لا تتوارى عن لحمك. حينئذ ينبلج كالصبح نورك وتزهر عافيتك سريعاً ويسير برك امامك ومجد الرب يجمع شملك» (اشعيا ٥٨: ٦-٩). ترى ما هي نتيجة كل ذلك؟ «عندها تصرخ الى الله فيستجيب لك. وعندما تصلي اليه يقول لك: ها انا حاضر. عندها وفي ظلمة الضيق سينبلج نور الفرح، اما الظلمة فتتبدد...» (اشعيا ٥٨: ٩-١٤). اترى كيف ان حل رباط الظلم في القلب-وقطع كل صلة ابرمناها بأية طريقة، وكل شر في علاقاتنا، وذلك كي نجدَّ في الاحسان الى قريبنا من كل النفس،-من شأنه ان يعيننا على اكتساب نور المعرفة المضيء، وهكذا ننعتق من اهواء الهوان ونقترب من كل فضيلة فنسطع بمجد الله، وننعتق من كل جهل، ونصلي الى المسيح فتستجاب صلاتنا ويكون الاله معنا على الدوام، وتتحقق كل رغبة فينا فتكون مرضية لمشيئة الله؟

٤٢- لنحب بعضنا بعضاً كي يحبنا الله. لنبدِ طول اناة، احدنا للآخر، وذلك كي يظهر الله طول اناته عن خطايانا. لا نبادلن الشر بالشر للذين اساؤوا الينا، فلا نعاقب بما تستحقه خطايانا. لأن مسامحة زلاتنا هي في مسامحتنا لأخوتنا. ورحمة الله لنا هي في محبتنا لقريبنا. لهذا قال الرب: «اغفروا يغفر لكم». «واذا غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم» (متى ٦: ١٤). وايضاً: «طوبى للرحماء فإنهم يرحمون» (متى ٥: ٧). «وكما تكيلون يكال لكم» (متى ٧: ٢). لقد منحنا الله الخلاص وأعطانا سلطاناً ابدياً كي نكون اولاد الله (يوحنا ١: ١٢). اذاً الخلاص هو في متناول ايدينا.

٤٣- لنبذل ذواتنا بالكلية للرب، وذلك كي نحصل عليه مقابل ذلك. هلم لنصبح الهة من اجله، فهو لهذا تجسد، علماً انه بالطبيعة اله وسيد. هلم لنبدِ له الطاعة، وهو سيحارب اعداءنا عنا بدون تعب: «لو سمع لي شعبي وسلك اسرائيل في طرقي لأذللت اعداءهم ورددت يدي على مضايقيهم» (المزمور ٨٠: ١٤-١٥). لنجعل كل رجاءنا به فقط، وكل اهتماماتنا فلتكن مكرسة له، فيعتقنا من كل ضيق، ويكون لنا طوال سني حياتنا. لتكن محبتنا الانسان من كل النفس. ولكن لا يكن رجاؤنا في احد، لأنه طالما ان الله يهتم بنا، فإن اصدقاءنا ينشغلون بنا ويهتمون بشؤوننا اما اعداؤنا فيعجزون عن الاساءة الينا. لكن عندما يتخلى الرب عنا، يتخلى عنا كل اصدقائنا، اما اعداؤنا فيقوون علينا. ان من يثق بنفسه، يسقط سقوطاً عظيماً. اما الذي يخشى الله، فيرتفع. لهذا قال داوود: «ايها الرب الهي بك اعتصمت فخلصني من جميع مضطهدي وانقذني لئلا

يختطف كالاسد نفسي ويفترسها ولا منقذ. ايها الرب الهي إن كنت قد صنعت ذلك او كان في يدي سوء، او كافأت من جزاني شراً أو سلبت من ضايقني على غير سبب، فليضطهد العدو نفسي ....» (مزمور ٧: ٣-١٨).

٤٤- لا نتعايشن مع الافكار التي تصغّر خطايانا وتشير الى انها ستُغفر لنا. والرب، كي يحفظنا منها قال: «احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة» (متى ٧: ١٥). وطالما ان ذهننا ينشغل بالخطيئة، فلن نوفق الى غفرانها وذلك لأننا لم نثمر بعد ثماراً لائقة بالتوبة. وثمرة التوبة هو لاهوى النفس. اما اللاهوى فهو غياب الخطيئة. ولن يكون (لنا) اللاهوى الكامل اذا كنا ننزعج من الاهواء تارة، وتارة اخرى لا ننزعج. وبالتالي لا نكون قد وفقنا بعد الى مسامحة الخطايا. فنحن قد تحررنا من الخطيئة بالمعمودية المقدسة. اما الخطيئة التي اقترفناها بعد المعمودية، فننعتق منها بالتوبة.

٤٥- لتكن توبتنا اصيلة، حتى اذا ما انعتقنا من الاهواء، نوفّق الى مسامحة خطايانا. لنزدرِ الدنيويات كي لا يحدث، ونحن نتقاتل مع الناس، ان نتعدى وصية المحبة فنسقط من محبة الله : «اسلكوا بالروح ولا تكملوا شهوة الجسد» (غلاطية ٥: ١٦). لنبدِ يقظة وصحوا. لنطرح عنا نوم الكسل والتواني. لنكن مماثلين الرياضيين القديسين الذين للمخلص.

لنقتد بجهاداتهم ناسين ما عبر، وموجهين اهتمامنا لما هو قدام (فيليبي ٣: ١٣). لنقتد بسيرتهم التي لا تتوقف، وحسن

استعدادهم الحار، ومثابرتهم على الامساك، وقداسة حكمتهم، وشجاعة صبرهم ومعاشرتهم لطول الاناة، واشفاق المحبة، وهدوء الوداعة، وحرارة الغيرة، والمحبة النقية، وسمو التواضع، وعدم القنية الثابتة التي عندهم، وشجاعتهم ودمائتهم.

لا ننجرفن الى الملذات، ولا نلوث ضمائرنا. «لنتبع السلام مع الجميع والقداسة التي بدونها لن يرى احد الرب» (عب ١٢: ١٤). واذا حصلنا على كل هذه، فلنهرب من العالم وسيد هذا العالم. لننكر الجسد والجسديات. لنسرع الى السموات والتي فيها تكون سيرتنا. لنقتد بالرسول الالهي. لنتمسك برئيس حياتنا كي يكون لنا. لنتمتع بنبع الحياة. لنكن في وسط الملائكة، ومع رؤساء الملائكة فلننشد للرب يسوع المسيح له المجد والعزة مع ابيه وروحه القدوس الآن وكل اوان والى دهر الدهر امين.

١- **اذهبوا بسلام**، (تعريب)، انفق عليه مجلس الكنائس العالمي.

٢- **اقوال الاباء الشيوخ**، (تعريب). منشورات النور.

٣- **شرح القداس الالهي**، نقولا كاباسيلاس، (تعريب).

٤- **اليقظة والصلاة** (تأليف + تعريب). مطبعة دكاش.

٥- **الحرب اللامنظورة** (تعريب). مطبعة دكاش.

٦- ٤٠٠ قول في المحبة للقديس مكسيموس المعترف (تعريب). مطبعة دكاش.

٧- **نعم ام لا للمناولة مع سائر الطوائف** (تأليف). مطبعة دكاش.

٨- **الرجل والمرأة من المنظار الارثوذكسي** (تأليف). مطبعة دكاش.

٩- **هل يلغى العهد القديم** (تأليف). مطبعة دكاش.

١٠- **المقالة النسكية للقديس مكسيموس المعترف** (تعريب).مطبعة دكاش.